Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينة فاس فى عصرى المرابطين و الموحدين

٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م إلى ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م

دراسة سياسية و حضارية

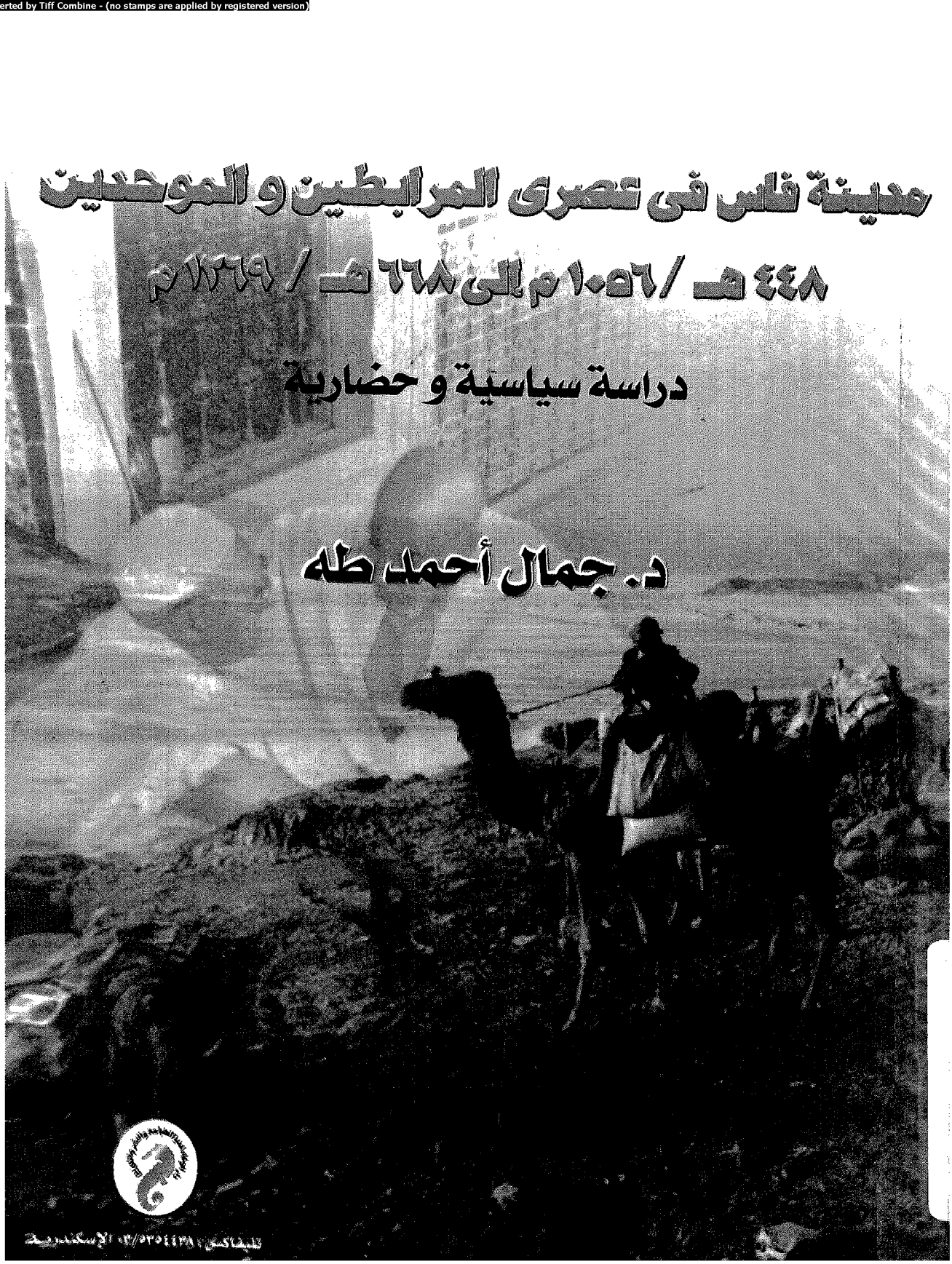

د. جمال أحمد طه

فاكس: ٠٣/٥٣٥٤٣٨ الإسكندرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينة فاس فى عصرى المرابطين والموحدين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينة فاس في عصرى المرابطين والموحدين

د. جمال أحمد طه

طباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة بلوك رقم (٣)

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - إسكندرية

رقم الإيـــداع: ١٥٨١٧/ ٢٠٠١

الترقم الدولى: 8 - 197 – 327 – 977

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين

٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م إلي ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م

دراسة سياسية وحضارية

د. جمال أحمد طه

مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب بسوهاج

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

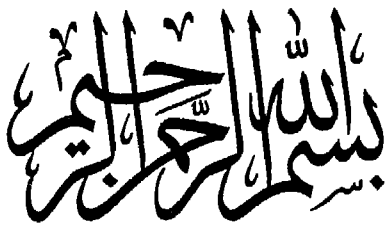
بسم الله الرحمن الرحيم

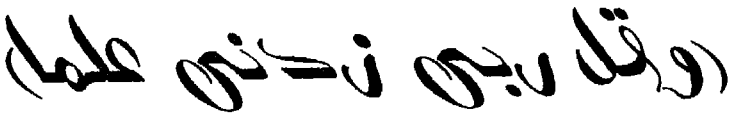
وقل رب زدني علما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إهـــداء

إلى روح الإمام إدريس بن إدريس الـذى أسـس مدينـة فـاس المعقـل السياسـى والفكـرى للحضـارة العربيـة الإسـلامية فـى المغـرب الأقصى .. وإلى روح والـدى الـذى روى فـى نفسـى بـذور الخير والحب والتسامح، وعلمنى العطـاء، فإليهما فـى مثواهمـا الأخير .. وإلى والدتـى التى علمتنى الأبجدية دون أن تتعلم، وأعطت دون انتظار لمقابل.

تحية إجلال وتقدير

... (اللهم إنك تعلم إنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت ببنائها أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ما أبقيت الدنيا)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقدمـــة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

"بسم الله الرحمن الرحيم"

مقدمـــة

تكتسب مدينة فاس أهمية خاصة فى التاريخ الإسلامى بصفة عامة، وتاريخ المغرب الأقصى بصفة خاصة، ليس من موقعها كمدينة أسسها الإمام إدريس الثانى فحسب، لكن لأهميتها فى العصرين المرابطى والموحدى، حيث كان لها أثر كبير فى مجرى التطورات السياسية المهمة سواء فى المغرب أو الأندلس، وإذا أضفنا إلى ذلك الخلفية التاريخية للمدينة منذ نهاية القرن الثانى الهجرى كعاصمة للمغرب الأقصى لأدركنا أهمية الدور الذى شغلته فاس فى هذه المنطقة عبر فترة اضطرابات هزت هذه المنطقة الواسعة وأفضت بها إلى منعطف تاريخى حاسم، سقطت معه المفاهيم القبلية القديمة وموازين الصراع التقليدى المسيطر على المدينة قبيل هذين العصرين.

ولابد من الاعتراف أن دراسات كثيرة جرت حول تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها إلى قبيل دخول المرابطين المدينة، ولكن الأبحاث المتصلة بتاريخ فاس فى عصرى المرابطين والموحدين لم تحظ بالاهتمام الذى يتفق وتلك المدينة، ولم تأخذ هذه الدراسات الطابع التخصصى للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لهذه المدينة على نحو متكافئ مع تلك الفترة الدقيقة الفاصلة فى تاريخ المغرب الأقصى. ومن ثم جاء اختيارى لدراسة هذا الموضوع، حيث حرص كل من المرابطين والموحدين على أن يسود مدينة فاس الاستقرار والأمان، وعملوا على رعاية العلوم والآداب، فتألقت الحياة العلمية والأدبية فى هذين العصرين تألقا تشهد به الأعداد الكبيرة من العلماء الذين أنجبتهم فاس، كما شهدت المدينة توسعا عمرانيا ممثلا فى المنشآت الجليلة التى أقيمت فى هذين العصرين مثل المساجد والفنادق والحمامات، كما شهدت منشآت ذات نشاط اقتصادى مثل دور الصناعة والأسواق، فازدهرت تجارتها، ولقد لعب هذا كله دورا هاما فى ارتفاع شأن المدينة، وبروز دورها فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية، مما جعل منها موضوعا جديرا بالبحث والدراسة.

فعندما قامت دولة المرابطين عام ٤٤٨ - ٥٤٠هـ/ ١٠٥٦ - ١١٤٥م على يد مؤسسها يوسف بن تاشفين لفتت أهمية فاس نظر هذا المؤسس باعتبارها الإقليم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى إذا سيطر عليه فاتح استطاع أن يسطر على أقاليم المغرب الأقصى كله دون عناء، فدخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م وأفلح المرابطون فى القضاء على الإمارة الزناتية المسيطرة على منطقة فاس والجهات المحيطة بها، تلك الإمارة التى تدهورت على يديها أوضاع المدينة وشمل الخراب كل مناحى الحياة فيها، لكن ازدهرت مدينة فاس على أيدى المرابطين، وأصبحت بحق العاصمة الثانية للمغرب - بعد مراكش التى أسسها المرابطون - حيث أمر يوسف بن تاشفين ببناء المساجد فى شوارع فاس وأزقتها، كما أمر ببناء الحمامات والفنادق والأرجاء والأسواق، وبدأ المرابطون فى زيادة الأراضى المزروعة وإدخال المحاصيل الزراعية، والاهتمام بالصناعات وتأمين طرق المدينة، واستجلاب الخبرات الفنية لها.

وظلت مدينة فاس خاضعة للمرابطين إلى أن ظهر الموحدون الذين بدأوا سلسلة من الحملات الناجحة قام بها المهدى بن تومرت على معاقل المرابطين، تلك الحملات التى عملت على هدم أركان دولتهم، وحسم الموحدون الأمر بقيادة عبد المؤمن بن على بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م وحاصروا مدينة فاس التى ظل أهلها يقاومون حتى عمد عبد المؤمن بن على إلى وسيلة لإرغام أهل فاس على التسليم، فأستسلمت المدينة له، ودخلها فى الرابع عشر من ذى القعدة عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م.

واهتم الموحدون بفاس اهتماما خاصا، واعتنوا بأمرها حتى بلغت فى عهدهم درجة عالية من الانتعاش العمرانى والاقتصادى لم تبلغه مدينة أخرى من مدن المغرب، لاسيما فى زمن المنصور الموحدى وولده الناصر، حيث شيدت الأسوار بالمدينة، وشهدت المدينة تطورا زراعيا، فأدخلت حاصلات زراعية جديدة، وراجت صناعتها وحرفها وانتشرت الأسواق بالمدينة وارتبطت بالطرق التجارية.

وقد استمر ازدهار فاس عمرانيا واقتصاديا خلال عصر الموحدين الذى يعتبر امتدادا للفترة المرابطية، ورافق هذا الازدهار تحولات كبيرة فى حياة سكانها الاجتماعية، فدخلوا المدينة على نطاق واسع، واكتسبوا المعارف والخبرات الفنية، فهو ازدهار لم تشهده هذه المدينة من قبل، حيث تألقت تألقا جعلها من المدن الهامة بالمغرب الإسلامى، فكانت عن جدارة واستحقاق إحدى كبريات مدن المغرب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت كبرى المشاكل الأساسية التى واجهتنى فى إعداد هذا البحث ندرة المصادر والوثائق التى تمكننى من كشف النقاب عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية بمدينة فاس فى عصرى المرابطين والموحدين، ومن ثم الوقوف على الأوضاع الاقتصادية والفئات الاجتماعية وهى المحرك الأساسى لهذا التاريخ، وسبب ذلك يعزى دون شك إلى أن معظم هذه الوثائق والمصادر قد عفى عليها الدهر أو تم طمسها تحت تأثير خلافات مذهبية أو حزازات سياسية وهذا ما فعله الموحدون بالمصادر والكتب التى ألفت فى عصر الدولة المرابطية؛ وإذا كانت هذه المعضلة تعد من المسلمات التى اعترف بها كل من عرك هذا الميدان، فإن المشكلة تتعاظم وتزداد حدتها بالنسبة للحديث عن العناصر السكانية فى مدينة فاس والتى تباينت فيما بينها بين عرب وبربر وأهل ذمة وعناصر أخرى، وعن الفئات الاجتماعية لاسيما العامة منها والتى تهمش كطبقة اجتماعية - رغم خطورة دورها - فى دائرة الإهمال والنسيان بالنسبة لمؤلفينا من أهل التاريخ. فكل المصادر التى نستقى منها معلوماتنا لم تحفل فى الغالب سوى بالخلفاء والأمراء وحاشيتهم ووصف بلاطهم أو ذكر مناقبهم، ومن ثم كنت الصعوبة فى هذه الدراسة فرحت أستنطق كتب الفقه والتراجم والفهارس والبرامج والطبقات، وكتب الأدب والجغرافية لعلى أجد فيها بغيتى.

والواقع أن هناك عدة أهداف أساسية حاولت من خلال بحثى أن أصل إليها كان من أهمها إبراز دور فاس السياسى وأهميته فى العصرين المرابطى والموحدى، وإجلاء الصورة الحضارية لمدينة فاس سواء على الصعيد الاجتماعى أو الاقتصادى أو الثقافى، متبعا فى ذلك المنهج العلمى القائم على تحليل النصوص واستنباط الحقائق والنتائج التى بنيت عليها دعائم رسالتى، مستعينا فى ذلك بالرسائل الرسمية والوثائق التى تخص الفترتين المرابطية والموحدية والمخطوطات والمؤلفات التاريخية وكتب التراجم والفهارس والبرامج والأدب والجغرافية وكتب الفقه، إلى جانب الدراسات العربية والأجنبية التى تعرضت من قريب أو بعيد لموضوع الدراسة.

وقسمت بحثى إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة وذيلته بقائمة بالمخطوطات والمصادر والمراجع العربية والأجنبية التى أطلعت عليها.

فمهدت لهذه الدراسة بفصل خصصته لنشأة مدينة فاس منذ التأسيس حتى قيام دولة المرابطين أوضحت فيه تأسيس فاس وتخطيطها على يد الإمام إدريس بن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إدريس، متناولا فى هذا الفصل تاريخ فاس منذ إنشائها حتى دخولها فى طاعة المرابطين.

أما الفصل الثانى، فأفردته لدراسة التاريخ السياسى لمدينة فاس فى العصرين المرابطى والموحدى، متناولا الحديث عن كيفية دخول المرابطين فاس وفتحهم لها عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م وانهائهم للإمارة الزناتية التى كانت تسيطر على المدينة، متعرضا فيه لتوحيد فاس وتنظيمها على عهد المرابطين، والاضطرابات والفتن التى حدثت بفاس ضد دولة المرابطين، كما تناول هذا الفصل أيضا حصار الموحدين لمدينة فاس وفتحهم لها عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، وأوضحت من خلاله الدور السياسى الذى قام به أمراء فاس تجاه دولتى المرابطين والموحدين، وختمت هذا الفصل بمحاولات بنى مرين للسيطرة على فاس بدءا من عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م.

وخصصت الفصل الثالث لدراسة الحياة الاجتماعية بمدينة فاس فى العصرين المرابطى والموحدى، تناولت فيه سكان المدينة من بربر وعرب وأندلسيين وعبيد. كما تناول هذا الفصل الطبقات الاجتماعية بالمدينة، ومكانة المرأة فى المجتمع الفاسى والعادات والتقاليد التى سادت المجتمع الفاسى، إلى جانب دراسة الاحتفالات ومظاهر التسلية، وطعام أهل المدينة وزيهم، ووصف دورهم.

وفى الفصل الرابع عالجت مظاهر الحياة الاقتصادية فى مدينة فاس فى العصرين المرابطى والموحدى. ففى مجال الزراعة تناول هذا الفصل سياسة الدولتين الزراعية فى المدينة وحاصلاتها الزراعية، ومدى اهتمام الدولتين بزراعة البساتين، موضحا الثروة الحيوانية التى تبعت العمليات الزراعية.

وفى مجال الصناعة تناول هذا الفصل صناعات النسيج والورق، وطحن الغلال، كما أوضحت الصناعات الجلدية والخشبية وصناعة الزيوت والصابون وصناعة ماء الورد، وصناعة السكة، والصناعات الفخارية والزجاجية.

أما فى مجال التجارة فقد أوضحت فى هذا الفصل سياسة الدولتين الضريبية وقيسارية وأسواق فاس وتنظيمها وإدارتها وطرق التجارة من عملة ومكاييل وموازين كما أوضحت تجارة فاس الداخلية وتجاراتها الخارجية مع الأندلس والسودان والمشرق.

أما الفصل الخامس والأخير فخصصته لدراسة الحياة الفكرية والعلمية بمدينة فاس فى هذين العصرين، متناولا أهم عوامل نمو الحياة الفكرية والعلمية بالمدينة، والمعلمين وطرق التعليم والمؤسسات التعليمية بالمدينة ثم تناول هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل ميادين الحركة الفكرية والعلمية بمدينة فاس من علوم نقلية وعلوم عقلية، فأوضحت فى العلوم النقلية علم القراءات والتجويد والتفسير وعلم الحديث وعلم أصول الفقه وعلم اللغة العربية والنحو والعلوم الأدبية من نثر وشعر، وعلم الكلام، وعلم التاريخ والتراجم والفهارس والوثائق، وعلم التصوف.

أما العلوم العقلية فتناول هذا الفصل علم الحساب والهندسة والطب وعلم الكيمياء. وختمت هذا الفصل بالحديث عن الدور الذى قامت به مدينة فاس فى نشر الثقافة الإسلامية فى بلاد المغرب والأندلس والمشرق.

وفى الخاتمة أوجزت ما انتهيت إليه من نتائج تمخضت عن هذه الدراسة.

ولا يسعنى إلا أن أتقدم بخالص شكرى وتقديرى وعرفانى بالجميل إلى أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور/ أحمد محمد الطوخى أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بسوهاج - جامعة أسيوط - الذى رعى خطوات هذا البحث فى جميع مراحله فكان تشجيعه أكبر عون لى على إنجاز هذه الدراسة فى الصورة التى أقدمها. فما جاء فى هذا البحث من فضل فإليه يعود، وما فيه من تقصير فإلى ينسب.

كما أتقدم بخالص شكرى وتقديرى إلى الدكتور محمد محمود أبو زيد مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بسوهاج على معاونته الصادقة وتشجيعه المستمر لى وتوجيهاته السديدة فله خير الجزاء.

ويعلم الله كم تكبدت من عناء وكم من جهد بذلت.

وأسأله التوفيق والسداد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسة لأهم المصادر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن دراسة تاريخ مدينة من المدن فى العصر الإسلامى يتطلب من الباحث الرجوع إلى مصادر متنوعة مثل المصادر التاريخية والجغرافية وكتب التراجم والبرامج والفهارس، وكتب السير والفقه والأدب، لأن المعلومات التى تتناول تاريخ المدينة السياسى والحضارى مبعثرة بين ثنايا تلك المصادر، وليس هناك مصنف واحد يجمع مثل هذه المعلومات خاصة إذا كان بعض مصادر تلك الفترة مفقود مما يضطر الباحث للرجوع إلى بعض المصادر المتأخرة عله يجد فيها شيئا يخدم بحثه.

وفى الفترة الزمنية لموضوع دراستى، فقدت كتب كثيرة كان قد صنفها رجال فى المغرب عاشوا فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى أو تأخر تاريخ وفاة بعضهم إلى القرن السابع/ الثالث عشر الميلادى، مثل تاريخ القاضى عياض المتوفى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م[١]. كما فقد كتاب خاص بتاريخ الدولة المرابطية وهو كتاب "الأنوار الجلية فى الأخبار المرابطية" لابن الصيرفى المتوفى عام ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[٢]، وكتاب تاريخ خاص بدولة الموحدين صنفه ابن سمرة المتوفى عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م[٣]. وكتاب القاضى يوسف بن عمر عن دولة الموحدين أيضا[٤].

أما الكتب المفقوده الخاصة بتاريخ مدينة فاس فمنها تاريخ فاس لأبى القاسم بن جنون، والمقباس فى أخبار المغرب وفاس لعبد الملك بن الوراق الذى عاش فى القرن السادس الهجرى، والمقتبس فى أخبار المغرب وفاس والأندلس لمحمد بن حماد السبتى، وكتاب المستفاد بمناقب الصالحين والعباد من أهل فاس وما والاها من البلاد لمحمد بن عبد الكريم الفندلاوى المتوفى عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م.[٥]

كذلك فقد كتاب "المسهب" لأبى محمد عبد الله بن إبراهيم الحجارى المتوفى فى منتصف القرن السادس[٦]، وكتاب خاص بتاريخ قبيلة ضهاجة أسمه "النبذ المحتاجة من تاريخ صنهاجة" لابن حماد المتوفى عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م[٧]. كما ضاعت بعض الكتب الجغرافية مثل كتاب جغرافية ابن فاطمة الذى عاش فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى[٨]. وفقدت أيضا بعض كتب البرامج مثل برنامج ابن الملجوم المتوفى عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، وبرنامج ابن القطان المتوفى عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وكتاب تراجم ابن فرتون المتوفى عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م.[٩]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن هنا كان على الباحث أن يحاول جمع مادة بحثه من مختلف المصادر سواء كانت معاصرة أو متأخرة مخطوطة أم مطبوعة، لاسيما وأن كثيرًا من مصادر القرن السادس أو ما كتب بعده وصلت إلينا غير كاملة.

وصنفت المصادر في مجموعات حسب طبيعة كل مصدر، وبينت الطريقة التي استفدت بها من كل مجموعة.

أولاً: الرسائل الرسمية المرابطية والموحدية:

اعتنى الأستاذ ليفي بروفنسال والدكتور حسين مؤنس والدكتور محمود على مكي، بنشر الرسائل الرسمية المرابطية والموحدية، فنشر بروفنسال سبعًا وثلاثين رسالة موحدية صادرة عن الخلفاء الموحدين[١٠] وحقق الدكتور حسين مؤنس رسالتين موحدتين أخريين.[١١] كما حقق اثنين وعشرين رسالة من الرسائل المرابطية[١٢]. كما قام الدكتور محمود على مكي بتحقيق مجموعة وثائق عن الفترة المرابطية فحقق إحدى وعشرين رسالة.[١٣] ونشر الأستاذ عبد القادر زمامة نصوص رسمية جديدة تتعلق بتاريخ الموحدين.[١٤]

وقد اختصت الرسائل المرابطية جميعها بالأندلس، وما وصلنا منها يعتبر ضئيلا جدا بالمقارنة بما عرف عن المرابطين من الاهتمام بالرسائل الرسمية إذ كانوا يتخذونها وسيلة للدعاية السياسية ويبعثون بها إلى الولايات في كل مناسبة، ولذا لم أستفد من الرسائل المرابطية المنشورة على طول البحث.

أما عن الرسائل الموحدية فقد شملت المغرب والأندلس، وتركزت الرسائل المغربية الموحدية على مخاطبة الطلبة والشيوخ والأعيان، وقد استفدت بصفة خاصة من الرسالة الحادية عشر. في فصل الحياة السياسية بمدينة فاس، حيث قدمت تلك الرسالة معلومات قيمة عن التمرد الذى قام به أخوه المهدى ابن تومرت ضد الخليفة عبد المؤمن بن على، وكيفية إنهاء الخلافة الموحدية لهذا التمرد[١٥]، كما استفدت من الرسائل الصادرة عن الخلافة الموحدية إلى طلبة فاس[١٦].

ثانيا: كتب التاريخ:

من المؤلفات التاريخية التى استفاد منها الباحث، كتاب أخبار المهدى للبيذق، المتوفى في منتصف القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى[١٧]. وهو كتاب من الكتب القليلة التى ألفت في بداية العصر الموحدى، وهو كتاب قيم جدا من الناحية التاريخية، وترجع أهميته إلى كون مؤلفه شارك بنفسه في صنع الوقائع التى وصفها، لأنه أحد تلاميذ المهدى بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ورفيق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من رفاق خليفته عبد المؤمن بن على، وترجع أهمية هذا الكتاب أيضًا أن مؤلفه كان شاهد عيان وأسهم فى تفويض أركان الدولة المرابطية وتأسيس الدولة الموحدية، فهو شارك فى تأييد حركة المهدى بقلمه، مثلما شارك فى النضال عنها فى ميادين الحروب بحد سيفه[١٨].

واستفاد الباحث من كتاب أخبار المهدى فى الفصل الخاص بالتاريخ السياسى لمدينة فاس، فهو علاوة على الأخبار التى أوردها عن كيفية إنهاء الدولة المرابطية، أفدت منه فى روايته عن الطريقة التى تم للموحدين بها حصار مدينة فاس، ومراسلات الجيانى عامل المدينة من قبل المرابطين، للموحدين ومساعدته لهم على تمكينهم من المدينة.

كتاب المن بالإمامة، لابن صاحب الصلاة، المتوفى عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م[١٩]

عاش ابن صاحب الصلاة فى ظل دولة الموحدين، وصحب مواكب خلفائهم، ونظرًا للقيمة التى ينعم بها كتاب المن بالإمامة فقد كان مرجعًا لكثير من المؤرخين، حيث استقى صاحب الكتاب معلوماته من الرواه الذين تحدثوا إليه، كما أن الكثير من معلومات الكتاب قد شاهدها ابن صاحب الصلاة بنفسه، ولذلك نجده بين الحين والآخر يقول: قال المؤلف، كما أن هناك بعضًا آخر من المعلومات التى نقلها عن بعض المؤلفين لمعروفين مثل ابن حيان. أو من بعض الوثائق الرسمية لدولة الموحدين مما استأثر به عن سائر المؤرخين.[٢٠] وقد استفدت من هذا الكتاب فى الفصل السياسى الذى خصصته لتاريخ فاس فى العصرين المرابطى والموحدى كما أمدنى ابن صاحب الصلاة بمعلومات ولو أنها قليلة عن بعض النواحى الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

*** كتاب نظم الجمان لابن القطان، توفى فى منتصف القرن السابع الهجرى[٢١]**

غطى كتاب نظم الجمان الأخبار المغربية من عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م إلى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م، وهى فترة الثورة الموحدية، وقد استفدت منه فى معرفة الأحداث السياسية فى تلك الفترة، وكما اهتم ابن القطان بالمظاهر الاقتصادية فى المدن المغربية، ولذا كانت أفادتى منه فى الحياة الاقتصادية بمدينة فاس فى العصر المرابطى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشى المتوفى عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[٢٢]

ويعد كتاب المعجب مصدرًا أساسيًا عن دولة الموحدين، ولا يمكن لباحث الاستغناء عنه، وأوجز المراكشى روايات كثيرة عن تاريخ المغرب قبل عصر الموحدين، وقد أفادنى هذا الكتاب فى كثير من مواضع الدراسة، حيث رسم لنا عبد الواحد المراكشى الطرق التجارية التى تربط فاس مع المشرق، كما استفدت منه فى الفصل الخاص بالحياة العلمية والفكرية.

- كتاب البيان المغرب، لابن عذارى المراكشى المتوفى ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م[٢٣]:

يعد كتاب البيان المغرب من الكتب الهامة عن تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، ويهمنا من هذا الكتاب الجزء الرابع، الذى يعد مصدرًا من مصادر تاريخ المرابطين، وهو لا يشمل تاريخ المرابطين كله، فقد سقطت منه الفترة ما بين عام ٤٦٩هـ/ حتى عام ٤٩٥هـ من ١٠٧٦ حتى ١١٠١م، وقد حاول إحسان عباس استكمال هذا النقص عن طريق الملاحق التى وضعها فى نهاية الجزء، ولهذا الجزء أهمية خاصة لما حواه من معلومات قيمة تتعلق بأحوال المرابطين السياسية والحضارية منذ النشأة حتى بداية سقوط الدولة. كما جاءت استفادتى من الجزء الخامس الخاص بالموحدين استفادة عظيمة حيث اعتمد ابن عذارى على الروايات المعاصرة للأحداث، كما أكثر النقل من ابن صاحب الصلاة وابن عبد الملك الوراق وأورد عددًا من الرسائل الرسمية لاسيما الموحدية منها، فأستفدت منه فى الفصل الخاص بالحياة السياسية حيث انفرد ابن عذارى من بين المؤرخين بتوضيح إعراج الخلفاء الموحدين على مدينة فاس والإقامة فيها فى كثير من الأحيان، واستقبال سفرائهم بها، كما أمدنى ابن عذارى بمعلومات عن الحياة العلمية والأدبية بمدينة فاس فى العصرين المرابطى والموحدى.

كتاب جمع تواريخ فاس، لمؤلف مجهول[٢٤]

جاءت معلومات هذا الكتاب مختصرة جدًا، ولكن بالرغم من هذا فقد استفدت منها فى الفصل الأول الذى خصص لتأسيس فاس وتاريخها حتى عصر المرابطين، كما أمدنى هذا الكتاب بمعلومات قيمة عن تاريخ المدينة فى الفترة التى سبقت الدولة المرابطية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس لعلى بن أبى زرع المتوفى عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م[٢٥]

موضوع القرطاس هو تاريخ المغرب عموما وتاريخ مدينة فاس خصوصا، كما يدل عليه اسمه، بداية من الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٥م وطريقة ابن أبى زرع فى الكتابة ليست طريقة الحوليات التى جرى عليها أغلب المؤرخين فى العصر الإسلامى، ولكنها طريقة من يؤرخ للدول، فهو يذكر الدولة ونسبها وتشعب قبائلها ومراحل تأسيسها، ثم يذكر فى نهاية الكلام عن كل دولة ما حدث فى أيامها من أحداث اجتماعية واقتصادية وظواهر طبيعية، ووفيات الأعيان منها، ورخاء الأسعار، وغلوها، وانتشار الأوبئة والمجاعات ونزول الأمطار وظهور النجوم. ويعتبر كتاب الأنيس المطرب على ما فيه من أخطاء من أهم مراجع المؤلفين المغاربة منذ تأليفه نظرا لشموله ووفرة أخباره.[٢٦] فقد نقل منه الجزنائى فى جنى زهرة الآس، وابن خلدون فى تاريخه وغير هؤلاء، وكان الأنيس المطرب من أهم الكتب التى استفدت منها فى هذا البحث، لاسيما فى فترة تأسيس المدينة، فقد ذكر ابن أبى زرع مراحل تأسيس فاس وأبوابها وبناء جامعها، كما أمدنى بمعلومات وفيرة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى عاشتها فاس قبيل دخول المرابطين، أما عن العصر المرابطى فقد جاءت استفادتى منه جليلة حيث ذكر سيطرة المرابطين على المدينة واهتمامهم بها وإصلاحاتهم فيها. أما عن العصر الموحدى فقد أفدت منه بمعلومات وفيرة عن حصار الموحدين لفاس ودخولهم إياها، أما من الناحية الاقتصادية فى العصرين المرابطى والموحدى فقد أمدنى ابن أبى زرع بمعلومات وفيرة، وانفرد من بين المؤرخين السابقين له بتعداد مرافق مدينة فاس فى العصر الموحدى، كما جاءت استفادتى منه فى الحياة الاجتماعية، حيث ذكر بين ثنايا حديثه بعضا من القبائل التى كانت تقطن مدينة فاس فى هذين العصرين.

كتاب جنى زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، لعلى الجزنائى من أهل القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى:[٢٧]

قصر الجزنائى مؤلفه هذا على تاريخ بناء مدينة فاس وذكر أسوارها وقناطرها، ووصف جامعيها دون استطراد إلى ذكر الدول والملوك وما واكب أيامهم وصاحب عهودهم من وقائع وأحداث، ولكن الذى يؤسف له أننا لا نعلم كثيرا ولا قليلا عن شخصية المؤلف، وإذا كان العلماء والمؤرخون الذين أشاروا إلى الكتاب أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نقلوا عنه مجمعين على أنه من تأليف ابن الحسن على الجزنائى، فإن أى واحد منهم لم يكلف نفسه عناء التعريف بأبى الحسن هذا والإشارة إلى شأنه وسنتى ولادته ومماته، فهو فى نباسة الحظ وسوء الطالع يشابه معاصرة ابن أبى زرع الذى أرخ مثله للناس ولم يؤرخ له أحد من الناس، ولكن يلاحظ أن الجزنائى بربرى ينتمى إلى قبيلة كزناته الزيانية الشهيرة المستقرة شمال تازه، ولكن نسبته إلى هذه القبيلة لا تفيد أنه ولد بها قبل انتقاله إلى فاس، فقد تكون أسرته انتقلت إليها واستقرت بها قبل ولادته بأجيال محتفظة بنسبتها إلى قبيلتها الأصلية، والجزنائى من أهل القرن الثامن الهجرى، وممن عاصر الأحداث والفوضى التى عمت بالمغرب بعد نكبة السلطان أبى الحسن المرينى بالقيروان ويقف الكتاب عند سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م. ولا شك فى أن المؤلف ألف جنى زهرة الآس حوالى هذا التاريخ.[٢٨]

ويحتوى جنى زهرة الآس على مقدمة وقسمين، قسم خُصص لذكر المغرب والثناء عليه وبيان شرفه وفتح المغرب ومجئ إدريس الأول إليه وتأسيس إدريس الثانى لفاس، أما القسم الثانى فقد خُصص لذكر من أدار فاس بالأسوار وزاد فيها الزيادات وإحصاء ما بها من المساكن والمتاجر والمرافق العمومية، وذكر جامعها، والحق أن هذا القسم مفيد جدًا، ولا يشوبه إلا الإيجاز فى وصف جامع الأندلس والمدينة على العموم بالنسبة للأطناب الذى وصف به جامع القرويين.

وبالرغم من هذا جاءت معلومات جنى زهرة الآس فى أغلبها تكرارًا لما أورده ابن أبى زرع فى كتابه الأنيس، ولذا خيب هذا الكتاب ظن الباحث فيه، فقد أغفل الجزنائى العديد من المنشآت والمؤسسات المهمة من بروج وحصون وقلاع ومؤسسات ومنشآت مهمة كقصبة الموحدين، فالجزنائى الذى برهن على مقدرة فائقة وهو يصف لنا جامع القرويين ومرافقه كان أحرى به أن يصف لنا مبانى فاس ومنشآتها، ولكن فى الواقع أنه زاد عمن كتبوا عن فاس زيادات كثيرة، وخاصة فى العصر المرينى.

الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية، لمؤلف مجهول من كتاب القرن الثامن الهجرى:[٣٠]

صنف هذا الكتاب فى سنو ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م ويتناول صاحب الكتاب تاريخ المغرب والأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين بالتفصيل إلى حد ما، رغم أن أسم الكتاب يوحى بأنه مختص بتاريخ مدينة مراكش فقط. وقد اعتمد صاحبه على مصادر معاصرة، ذكر أسماء صاحبها منهم الصيرفى المتوفى عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وابن القطان صاحب نظم الجمان ومنهم الجغرافى عبد الله البكرى، كما اعتمد فى عصر الموحدين على أبى بكر الصنهاجى الملقب بالبيذق، وعلى ابن صاحب الصلاة، وكتاب الحلل الموشية من الكتب الهامة التى لا يمكن الاستغناء عنها فى تاريخ دولتى المرابطين والموحدين ويمتاز بدقة أخباره التاريخية وصحتها خاصة فيما يختص بقيام دولة المرابطين كما يمتاز بمعالجته للنظام الحربى وأساليب القتال[٣١]. وقد استفدت من هذا الكتاب فى الفصل الخاص بالحياة السياسية بمدينة فاس، فهو من أهم الكتب التى أعانتنى على إلقاء الضوء على حصار الموحدين لمدينة فاس ودخولهم إياها.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون المتوفى ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م[٣٢]

وقد عالج ابن خلدون تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى معالجة تفصيلية لاسيما فى القرنين السادس والسابع الهجريين، وقد كانت مقدمة ابن خلدون من أهم ما اعتمدت عليه من مصادر فى هذه الدراسة، لما ظهر فيها من إشارات كثيرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية فى مدينة فاس خلال عصرى المرابطين والموحدين. كما جاءت استفادتى من الجزء السادس بالغة الأهمية حيث أمدنى بالكثير من المعلومات عن الحياة السياسية فى عصرى المرابطين والموحدين، كما أن هذا الجزء ضم معلومات مهمة عن مواطن العرب والبربر فى مدينة فاس ومن ثم فقد أفادنى إيما إفادة فى فصل الحياة الاجتماعية بمدينة فاس.

كتب التراجم والفهارس والبرامج:

ويقصد بكتب البرامج، الكتب التى سجل فيها العالم ما قرأه من مؤلفات فى مختلف العلوم، من عنوان الكتاب واسم مؤلفه والشيخ الذى قرأ عليه، وكتب البرامج تعتبر وثيقة هامة تجلو ثقافة العصر الذى ألفت فيه ومادتها، وتتضمن أساليب التعليم وطرائق الأخذ والرواية، وتبين جانبا خطيرا من جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية فى تلك العصور.

ويلاحظ أن كتب الفهارس والتراجم والبرامج العامة لمعاصرة كانت تتبع منهجا واحدا فهى تذكر اسمر المترجم له وكنيته ونسبه، وبلده الذى ولد فيه أو الذى كان منه أصله إذا ما هاجر من بلد مولده إلى آخر. وتبين شيوخه وعلومه ومن أخذ عنه، ثم تختم الترجمة بتاريخ الوفاة ومكانها ما كان ذلك ميسورا.[٣٣] وهذه هى طريقة القاضى عياض المتوفى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م فى كتابة الغنية (فهرس شيوخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القاضي عياض[٣٤]) وابن بشكوال المتوفى عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م فى كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم[٣٥]. وأحمد بن عمير الضبى المتوفى ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م فى بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس[٣٦]. ولا تختلف كتب التراجم المشرقية عن نظيرتها المغربية ما كتبه السلفى المتوفى عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م فى معجمه[٣٧]، وشمس الدين محمد بن الجزرى فى كتابه غاية النهاية فى طبقات القراء[٣٨].

وقد رجعت إلى العديد من كتب التراجم والفهارس والبرامج، منها ما هو عام ومنها ما هو خاص. فمن كتب التراجم العامة، التكملة لكتاب الصلة، والمعجم فى أصحاب القاضى ابن على الصدفى، لابن الآبار المتوفى ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م[٣٩] والذيل والتكملة لكتابى الموصلة والصلة لابن عبد الملك المراكشى المتوفى ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م[٤٠]. وصلة الصلة البشكوالية فى تراجم علماء الأندلس لأبى جعفر أحمد بن الزبير المتوفى عام ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م.[٤١] وسير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد الذهبى المتوفى ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م[٤٢]. وكتاب أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القنسطينى المتوفى ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م[٤٣].

أما النوع الثانى فهو ما اختص بتراجم قوم دون غيرهم مثل كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول صنفه فى سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م[٤٤].

والنوع الثالث من هذه الكتب يختص بتاريخ وأخبار مدينة واحدة مثل عنوان الدراية للفبرينى ت٧١٤هـ/ ١٣١٤م[٤٥]، والإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب المتوفى ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م[٤٦]، وكتاب بيوتات فاس الكبرى لاسماعيل بن الأحمر ت٨٠٧هـ.[٤٧] وهو كتاب مفيد للباحثين فى تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، ويتناول التعريف ببعض البيوتات الفاسية النبيهة وأنسابها والإشارات الخفيفة إلى مشاهير كل بيت منها. وكتاب جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لابن القاضى المكناسى ٩٦٠ - ١٠٢٥هـ/ ١٥٠٣ - ١٦١٦م[٤٨]. وقد خص ابن القاضى مدينة فاس بالاهتمام الكبير والعناية الفائقة حيث أطلعنا على الكثير من معالمها التاريخية وخططها ومساجدها وعمرانها بالإضافة إلى تراجم أعلامها الذين نشأوا فيها أو حكموها أو حلوا بها وبذلك كان ابن القاضى مؤرخ فاس منذ نشأتها إلى أوائل القرن الحادى عشر/ السابع عشر الميلادى، وكتاب جذوة الاقتباس مرآه ينعكس على صفحاتها اهتمام ابن القاضى بمسقط رأسه، وما بذله من جهد لجمع هذه المعلومات التى ما تزال مرجعا هاما فى تاريخ المدينة[٤٩].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لأبى عبد الله محمد بن أحمد الملقب بابن مريم[٥٠]. والإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام،العباس إبراهيم المراكشى[٥١]. وأتحاف أعلام الناس بجمال حاضره مكناس لعبد الرحمن بن زيدان[٥٢]. وسلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء بمدينة فاس لمحمد جعفر الكتانى[٥٣]. وتميزت هذه الكتب المتأخرة بما نقلته عن مصادر مفقوده، وأيضا بتراجمها المستفيضة، لأن مصنفيها غالبا ما كانوا يعتمدون على كتب التاريخ والوثائق أو "التقاييد" ولهذا أفادتنى فى إمدادى بإشارات عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية بمدينة فاس، كما وضحت لى دور مدينة فاس العلمى فى المدن المغربية المجاورة.

أما النوع الرابع من كتب التراجم، فهو ما اختص بتراجم شخصيات علمية معينة مثل ما اختص بتراجم القضاه ككتاب تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا لأبى الحسن النباهى كان حيا ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م[٥٤]، وبرنامج التجيبى لأبى القاسم بن يوسف التجيبى السبتى ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م[٥٥]. وبرنامج شيوخ الرعينى لأبى الحسن على الرعينى المتوفى ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م.[٥٦] وكتاب غاية النهاية فى طبقات القراء لشمس الدين بن محمد الجزرى[٥٧]. والديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكى ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م[٥٨]. ومنها ما اختص بتراجم النحاه مثل بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه للسيوطى ٩١١هـ/ ١٥٠٥م[٥٩].

كما أن هناك نوعا من هذه الكتب تناول تراجم المتصوفة، ومنها كتاب التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات التادلى ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م[٦٠]. وكان لهذا الكتاب فائدة عظيمة فى هذه الدراسة، وذلك لأن ابن الزيات كثيرا ما كان يذكر مهن من يترجم لهم وثرواتهم كما أنه أشار إلى بعض أسعار السلع فى العصرين المرابطى والموحدى، هذا إلى جانب أنه المصدر الوحيد الذى تناول المتصوفة فى القرن السادس الهجرى. والروض العاطر الأنفاس فى أخبار الصالحين من أهل فاس لأبى محمد بن عيشون الشراط المتوفى ١١٠٩هـ/ ١٦٩٧م[٦١]. الذى أمدنا بمعلومات وفيرة عن المتصوفة فى مدينة فاس، وطعامهم وملبسهم. وكذلك مخطوط المعزى فى مناقب سيدى أبو يعزى لأحمد بن أبى القاسم بن محمد الهروى التادلى، المتوفى ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م.[٦٢] وأفدت من هذا المخطوط فى الدور الذى قام به المتصوفة فى الحياة السياسية بمدينة فاس فى هذين العصرين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتب الأدب:

قدمت المصادر الأدبية معلومات جليلة تميط اللثام عن الحياة العلمية، لاسيما فيما يخص الأدب بمدينة فاس. وكان من أهم هذه الكتب المطرب من أشعار أهل المغرب لأبى الخطاب عمر بن حسين بن دحية ت٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م[٦٣].

وقيمة هذا الكتاب ترجع إلى أنه وثيقة أدبية لدارسى الأدب فى تلك الفترة كما أنه يعرج فى حديثه فى بعض الأحيان على بعض الأخبار التى تتعلق بالمغرب. وكتاب الغصون اليانعة فى شعراء المائة السابعة لابن سعيد المغربى المتوفى ٦٨٥هـ/ ١٢٥٩م[٦٤]. الذى أمدنى بمعلومات وفيره عن بعض شعراء فاس فى العصر الموحدى. وكذلك كتاب زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر لابن بحر بن صفوان بن إدريس التجيبى المتوفى عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م[٦٥]. وترجمت هذه الكتب لبعض شعراء مدينة فاس كما ترجمت لآخرين جعلوا من فاس وطنا لهم ودار مقام، وقدمت بعضا من فنون شعرهم.

كتب الجغرافية والرحلات:

تكشف الكتب الجغرافية المعاصرة لفترة الدراسة موضوع البحث عن أوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى بمدينة فاس، نظرا لما تتضمنه من معلومات عن الصناعات الزراعية والطرق التجارية وعناصر السكان وأعمالهم وحياتهم.

وكان من أهم الكتب الجغرافية التى رجعت إليها، كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبى عبد الله البكرى المتوفى عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م[٦٦] فقد ذكر البكرى وصفا لمدينة فاس فى بداية العصر المرابطى، وبعض الطرق التى تربط تلك المدينة بالمدن المغربية الأخرى، كما أمدنى بمعلومات عن المكاييل والموازين التى كان يستخدمها أهالى فاس فى بيعهم وشرائهم، هذا إلى جانب أنه ذكر تاريخ المدينة منذ تأسيسها وأبوابها وبعض ملامحها الرئيسية وكان البكرى أول من انفرد بتعداد حمامات فاس فى العصر المرابطى، ومن ثم كانت إفادتى من هذا كبيرة.

كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مجهول من كتاب القرن السادس الهجرى[٦٧]:

ويفهم مما جاء فى هذا الكتاب أن مؤلفه قد عاش فى عصر يعقوب المنصور، وتدل التفصيلات التى يمدنا بها عن فاس ومراكش ومكناسة عن معلوماته الغزيرة عن هذه المدن، فلا شك أنه عاش فيها، إن لم يكن أصله منها، فهو لا يكتفى بالوصف الدقيق للعواصم المغربية فى دولة الموحدين على عهده ولا بالأعمال الإنشائية التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمت على عهد يعقوب المنصور وسلفه، بل يقترح خططا عمرانية أخرى تهدف إلى نشر الرخاء في هذه المناطق، ويحتوى على معلوماته دقيقة وأخبار عامة، فهو مصدر لمعلومات متنوعة خاصة ما يخص منها مدينة فاس[٦٨].

وفي الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية بمدينة فاس أفدت كثيرا من كتاب الجغرافية المنسوب لأبي عبد الله محمد الزهري المتوفى حدود عام ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م[٦٩]. كما أمدني كتاب الجغرافية لابن سعيد المغربي[٧٠] بمعلومات عن الحياة الاقتصادية بمدينة فاس في العصر الموحدى.

وجاءت الفائدة جليلة من كتابات ابن فضل الله العمرى في وصفه للمغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني، وهو مقتبس من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار[٧١]. فمن بين المواضع التي تناولها هذا الوصف مدينة فاس العتيقة (موضوع الدراسة) الذى أمدني بمعلومات ندر أن نعثر على كثير منها لو لم يدونها ابن فضل الله العمرى في مسالكه.[٧٢] ويزيد من أهمية هذه المعلومات أن ابن فضل الله العمرى استقى كثيرا منها من مصدرين مهمين علاوة على مشاهدته الشخصية. المصدر الأول مشافهة السلالجي أحد سكان فاس الذى كان معاصرا لما دونه ابن فضل الله العمرى، وبالرغم من ذلك لم يتساهل ابن فضل الله العمرى في النقل عن المحدث بل نراه يقول: "اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له فيما رأيته بالمشاهدة وفيما لم أره بالنقل ممن يعرف أحوال المملكة المنقول عن أخبارها، ومما أراه بعيني أو أسمعه بأذني". والمصدر الثاني لابن فضل الله العمرى "كتاب المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المغربي المتوفى ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م فإن كثيرا مما ذكره في وصف فاس العتيقة منقول من الجزء الخاص بالمغرب وهو أحد أجزاء كتاب المغرب في حلى المغرب، وتظهر أهمية هذه المقتطفات عظيمة جدا إذا علمنا أن الجزء الخاص بالمغرب مفقود إلى الآن[٧٣]. لذا جاءت الفائدة عظيمة في وصف الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فاس.

كما استفدت أيضا من مصدرين مهمين عن وصف المدن وتاريخها، أحدهما مشرقي المؤلف، ألف في القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى، ونعني به كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموى[٧٤]. والآخر أندلسي ونعني به كتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" لابن عبد المنعم الحميرى المتوفى في القرن الثامن الهجرى[٧٥]. وفي التعريف بالمواقع التي وردت في متن الرسالة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكى أتمكن من رسم صورة واضحة لحضارة فاس فى هذين العصرين اضطررت للرجوع إلى كتب الرحلات المتأخرة عن فترة الدراسة مثل كتاب "وصف أفريقيا" لجان ليون الأفريقى المنوفى ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م[٧٦] ولد ليون فى غرناطة عام ٨٩٥هـ/ ١٤٧٩م، وقيل غير ذلك، وقام برحلات طويلة فى أقطار الإسلام وغرب أفريقيا، وسجل مشاهداته فى هذا الكتاب النفيس، وقد غادرت أسرة ليون غرناطة إلى فاس حيث اتصلت بحكامها، وهناك أتم الحسن الوزان "ليون" دراسته فى مدارسها، وفى جامع القرويين بالذات إلى جانب توليه بعض الأعمال الحكومية بها، وقد أفاض ليون فى وصف فاس التى سماها المدينة الكبرى، وجاء وصفه لها دقيقا للغاية ولعل السبب فى هذه الإفاضة أن المؤلف عرف فاس أكثر من غيرها.[٧٧]

والواقع أن ليون الأفريقى بالإضافة إلى مشاهداته فى فاس نراه يستقى بعضا من معلوماته ممن كتبوا قبله أمثال ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار، كما أنه بحكم توليه بعض الأعمال الإدارية فى فاس تمكن من الإطلاع على بعض الكتب والتقاليد المهمة الخاصة بتاريخ فاس، لذا أمدنا ليون الأفريقى بمعلومات انفرد بها عن باقى المصادر الأخرى التى أطلعت عليها، حيث ذكر قيسارية وأسواق فاس فى شئ من التفصيل، كذلك أنواع المتاجر والسلع فى كل سوق، لذا جاءت الفائدة منه كبيرة فى الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية.

ولا يقل كتاب "أفريقيا" لمارمول كرفخال[٧٨]. أهمية وفائدة عن كتاب وصف أفريقيا. فهذا الكتاب يعد من المؤلفات المهمة التى كتبت فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى عن أفريقيا عامة، والمغرب الأقصى بصفة أخص، ويحتل هذا الكتاب الدرجة الثانية بعد وصف أفريقيا، حيث تعاصر هذان المؤلفان ولم يفصل بين كتابيهما سوى أربعين عاما[٧٩]. فكتاب أفريقيا يفيد الباحثين فى جغرافية أفريقية وتاريخها، وينفرد مارمول بما سجله من مشاهدات وصف بها بعض المواقع التى لم يصفها غيره.

كتب الفقه:

كانت لكتب الفقه فائدة كبرى بالنسبة لهذا البحث فإنه لا يمكن أن نفسر أى ظاهرة من تاريخ المغرب الإسلامى بغير أن نضع نصب أعيننا الأوضاع الفقهية فيها. والحقيقة أن هناك طائفة من كتب الفقه المالكى المغربى تستحق عناية خاصة، تلك هى كتب الفتاوى التى جمع مؤلفوها ما أجاب به كبار الفقهاء على أسئلة وجهت إليهم فى مشاكل معينة ولهذه الفتاوى قيمة عظيمة بغير شك لا من الناحية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدينية فحسب، بل إنها تلقى ضوءا باهرا على كثير من دقائق الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وهناك نوعان من كتب الفقه كانا ذا فائدة كبيرة فى توضيح الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة فاس فى هذين العصرين، وهما مصنفات النوازل وكتب الحسبة.

أما النوازل فهى عبارة عن القضايا التى رفعت إلى رجال القضاء والفتوى للنظر فيها، وعادة ما تذكر القضية كما حدثت بأشخاصها، ووقائعها مع ذكر من رفعت إليه، وكثير من هذه النوازل كانت تتعلق بالقضايا الدينية والاقتصادية والاجتماعية، فأفدت منها فى الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية كما أفدت منها فائدة جليلة فى فصل الحياة الاجتماعية.

ولعلنا لا نسرف إذا قلنا أن أضخم مجموعة حفظت لنا كثيرا من هذا التراث التشريعى العظيم هى التى صنفها أبو العباس أحمد بن يحيى التلمسانى الونشريسى ٨٣٤ - ٩١٤هـ/ ١٤٣٠ - ١٥٠٨م بعنوان "المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب"[٨٠] ولد الونشريسى بجبال ونشريس، ثم خرج إلى فاس، ولقى بها من حفاوة فقهائها وإقبال طلبتها عليه الشئ الكثير، فشارك فى كثير من فنون العلم. وبالرغم من أن هذا الكتاب يعد متأخرا عن فترة الدراسة، إلا أنه له أهمية خاصة لأن المفتون فى المعيار كما قال المؤلف فى المقدمة - هم من متقدمى الفقهاء ومتأخريهم - يعنى فقهاء المالكية فى المغرب الإسلامى من تلاميذ الإمام مالك إلى شيوخ الونشريسى، وهناك أهمية ثانية نعول عليها فى الاعتماد على هذا المصدر، وهى أن الونشريسى فى جملة من أخذ عنه بمدينة فاس محمد بن محمد الغرديسى التغلبى، صاحب المكتبة العظيمة التى حوت من نفائس كتب المغرب والأندلس الشئ الكثير، لاسيما كتب الفقه المالكى من أصول وفروع، وشروح وحواشى وتعاليق ونوازل وقواعد ووثائق، وقد شغل آل الغرديس بفاس أكثر من سبعة قرون إذ عمل علماؤهم مع أمراء مغراوة، كما عرف منهم آخرون مع المرابطين والموحدين والمرينيين، ففتح محمد الغرديس أبواب مكتبته فى وجه شيخه الونشريسى ليختار منها ما يشاء فكانت مؤلفات هذه المكتبة المصدر الأساسى للمعيار فيما يتعلق بنوازل المغرب الأقصى والأندلس، خاصة مدينة فاس.[٨١]

وللمعيار جانب آخر قلما يلتفت إليه وهو الجانب الاجتماعى والتاريخى فقد حوى كثير من إشارات عن أحوال المجتمع الإسلامى فى هذه المنطقة، من عادات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فـي الأفـراح وأنـواع الملبوسـات والأطعمـة، وحـالات معينـة فـي الحـرب والسـلم والعمران، الأمر الذى يجعل منه مصدرا للمؤرخ مثلما هو مصدر للفقه.

وذكر الونشريسى فى معياره نوازل كل مدينة من مدن المغرب والأندلس فكان من الميسور الرجوع إلى ذلك، ولكن تكمن الصعوبة فى المعيار فى عدم ذكر تاريخ وقوع هذه النوازل، لذا كانت طريقتى فى الاستفادة من هذا المصدر فيما يخص نوازل فاس فى العصرين المرابطى والموحدى، أن أرجع إلى ترجمة الفقيه الذى رفعت إليه القضية، فإن كان ممن عاش فى هذين العصرين قيدتها، وإن كان متقدما أو متأخرا تركتها، وذلك للوصول بقدر المستطاع إلى نقل الصورة الحقيقة التى كانت فى هذين العصرين.

أما ثانى الكتب الفقهية أهمية فكان كتاب "المدخل" لابن الحاج المتوفى ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م[٨٢]، الذى يمكن أن نعده ضمن كتب الفقه التى اختصت بمعالجة الحياة الاجتماعية وجزء كبير من هذا الكتاب يمكن إدراجه ضمن كتب الحسبة. وتتجلى أهميته فى مقارنة ابن الحاج بين ما كانت عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المغرب الإسلامى ومصر آنذاك، ناقلا فى بعض سطور كتابه فتاوى بعض فقهاء فاس حول بعض المظاهر الاجتماعية التى بدأت تظهر فى الشارع الفاسى فى ذلك الوقت، ومن هنا كانت الفائدة من هذا الكتاب لتوضيحه بعض المظاهر الاجتماعية بفاس.

أما كتب الحسبة فأهم ما وصل إلينا منها ثلاث رسائل ترجع إلى النصف الأول من القرن السادس الهجرى، وهى رسالة ابن عبدون، وابن عبد الرؤوف، وابن عثمان الجرسيفى[٨٣]. ولكن كتب الحسبة هذه تختص بالأندلس دون المغرب، ويغلب عليها الجانب النظرى فيما يجب أن تكون عليه الحياتين الاقتصادية والاجتماعية، وينقصها بذلك الجانب التطبيقى.

الدراسات الحديثة:

لا يمكن أن نغفل أهمية الدراسات الحديثة التى أمدتنى بالكثير من المعلومات عن مدينة فاس فى هذين العصري، ومن هذه الكتب الاستقصاء فى أخبار المغرب الأقصى للناصرى السلاوى[٨٤]. وهو كتاب عام فى تاريخ المغرب، ومن هذه الكتب ما اقتصر على تاريخ مدينة فاس مثل كتاب الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر خطب المغرب وتاريخ مدينة فاس لمحمد بن جعفر الكتانى[٨٥] وكتاب بيوتات فاس فى القديم والحديث لعبد السلام بن سوده.[٨٦] حيث اعتمد ابن سوده على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجموعة من التقاليد الخاصة بأسر من يترجم لهم، ويحتفظ هذا الكتاب بفائدة لصعوبة الرجوع إلى بعض مصادره.

كما أفدت من الدراسات التي تناولت تاريخ مدينة فاس في مرحلة التأسيس مثل الدراسة التي قام بها الأستاذ ليفي بروفنسال عن تأسيس مدينة فاس.[٨٧] وما كتبه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد عن مدينة فاس في عصر الأدارسة في كتابه تاريخ المغرب العربي[٨٨]. وأيضا ما كتبه الدكتور السيد عبد العزيز سالم عن مدينة فاس في كتابه تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي[٨٩] وأيضا الدراسة التي قام بها إسماعيل العربي عن دولة الأدارسة[٩٠].

وأفدت أيضا من الدراسات التي اهتمت بالتاريخ السياسي في العصرين المرابطي والموحدي، ومن هذه الدراسات ما كتبه الدكتور عبد الهادي شعيره عن "المرابطين وتاريخهم السياسي"[٩١].

ومن هذه الدراسات ما أشار إلى جانب التاريخ السياسي وإلى بعض مظاهر الحضارة مثل ما كتبه الدكتور حسن أحمد محمود عن قيام دولة المرابطين[٩٢].

ومن الدراسات ما اختص بدراسة نوع معين من النشاط، مثل ما كتبه عز الدين موسى، عن النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي في القرن السادس.[٩٣] وما كتبه عبد العزيز العلوي عن صناعة النسيج في المغرب في العصر الوسيط.[٩٤] وما كتبه أيضا عبد القادر زمامة عن صناعة فاس التقليدية.[٩٥]

وأيضا من الدراسات الحديثة، ما اختص بدراسة الحضارة بالمغرب الإسلامي والأندلس بصفة عامة في عصرى المرابطين والموحدين، مثل ما كتبه الدكتور حسن علي حسن[٩٦]. ومحمد المنوني عن العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين.[٩٧] وهما في الحقيقة من أكثر الكتب التي استفدت منها وإن كانت المعلومات التي أوردها محمد المنوني تفتقر إلى التحليل والدراسة.

ومن هذه الدراسات أيضا ما اختص بفئة معينة مثل كتاب الطب والأطباء بالمغرب لعبد العزيز بن عبد الله[٩٨]. وكتاب الأدب المغربي لمحمد بن تاويت ومحمد الصادق[٩٩].

إن هذه المصادر والدراسات الحديثة وغيرها مما سوف نورده في نهاية البحث قد يسرت إبراز هذه الصورة السياسية والحضارية لمدينة فاس في عصرى المرابطين والموحدين، ولئن تحكمت المادة المتيسرة في عدم وضوح الصورة حينا أو غياب بعض الجزئيات أحيانا أخرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١- عبد السلام بن سوده: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٦٥، جـ٢ ص٢٧٢، عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٣ ص١٣.

٢- ابن الآبار القضاعى: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق كوديرا، مدريد، ١٨٨٨، ١٨٨٩، جـ٢ ص٧٢٣، ابن الزبير: صلة الصلة، تحقيق ليفى بروفنسال، الرباط، المطبعة الاقتصادية، ١٩٣٧، ص١٨٢، عز الدين موسى: المرجع السابق، ص١٣.

٣- عبد السلام بن سوده: المرجع السابق، جـ١ ص١٣٥ - ١٣٦، عز الدين موسى، نفس المرجع والصفحة.

٤- ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٢، ص٢٠٨.

٥- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٢٧٠، على الجزنائى: جنى زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بين بن منصور، الرباط ١٩٦٧، ص٧ - ٨.

٦- ابن سعيد المغربى: المغرب فى حلى المغرب، تحقيق دكتور شوقى ضيف، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ، جـ٢ ص٣٥ وانظر عنه كذلك الحاشية بنفس الصفحة، عز الدين موسى: المرجع السابق، ص١٣.

٧- عبد السلام بن سوده: المرجع السابق، جـ١ ص١٦٧، عز الدين موسى نفس المرجع والصفحة.

٨- محمد المنونى: العلوم والفنون والآداب، تطوان، المطبعة المهدية، ١٩٥٠، ص٨٩.

٩- ابن القاضى المكناسى: جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الإعلام مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٣م، جـ١ ص١١٨، ٢٦٣، جـ٢ ص٤٧١.

١٠- ليفى بروفنسال: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة الموحدية، الرباط، معهد العلوم العليا المغربية، ١٩٤١،

Levi Provencal: Unrecuell De Lettres Officielles Almohdes etude Eiplomatique et Historique, Hesperis, Anne 1931 p. 1 – 70.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١- حسين مؤنس: عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله الخليفة الناصر الموحدى، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠، المجلد الأول، العدد الثانى ١٤٧ - ١٧٣.

١٢- حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلس فى عهد المرابطين، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، العدد الحادى عشر، العدد الثانى، ص٩١ - ١٤٤، وسبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٤، المجلد الثانى العدد ١ - ٢، ص٥٥ - ٨٤، ونصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، مجلة المعهد المصرى، مدريد، ١٩٥٥، المجلد الأول، العدد الأول ص١٧.

١٣- محمود على مكى: وثائق تاريخية جديدة من عهد المرابطين، صحيفة الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٩ - ١٩٦٠، المجلد السابع والثامن، ص١٠٩ - ١٩٨.

١٤- عبد القادر زمامة: اكتشاف نص جديد يتعلق بتاريخ الموحدين، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، العدد الرابع والخامس، ١٩٨٠ - ١٩٨١.

١٥- ليفى بروفنسال: مجموع رسائل موحدية، ص٣٨ - ٤٧.

١٦- انظر ليفى بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية، الرسالة الحادية والعشرون ص١١٣ - ١٢١، الرسالة الخامسة والثلاثون ص٢٢٨ - ٢٤١.

١٧- البيذق: أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧١.

١٨- البيذق: المصدر السابق، مقدمة المحقق.

١٩- ابن صاحب الصلاة: (محمد بن أحمد بن إبراهيم الباجى) تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، السفر الثانى، تحقيق عبد الهادى التازى، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٤.

٢٠- انظر مقدمة كتاب المن، ص٤٣، ٤٦.

٢١- ابن القطان: نظم الجمان فى ترتيب ما سلف من أخبار الزمان تحقيق محمود على مكى، تطوان، المطبعة المهدية، بدون تاريخ.

٢٢- تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣.

٢٣- يقع هذا الكتاب فى خمسة أجزاء اعتمدنا فيها على الأربعة الأجزاء الأولى التى حققها الدكتور إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الثانية ١٩٨٠،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتى تخص تاريخ المغرب حتى العصر المرابطى، أما الجزء الخامس فهو خاص بتاريخ الموحدين حققه محمد بن تاويت، ومحمد إبراهيم الكتانى، ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر، ١٩٨٥، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٥م.

٢٤- طبع هذا الكتاب بمدينة بالرم، مطاع برنارد وبرزى، بدون تاريخ.

٢٥- الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٢.

٢٦- الأنيس المطرب، ص٨.

٢٧- تحقيق عبد الوهاب بن منصور، فاس، ١٩٦٧.

٢٨- انظر عبد الوهاب بن منصور فى تقديمه لجنى زهرة الآس ص: ب، ج.

٢٩- نفسه، ص: و، ز.

٣٠- ينسب هذا الكتاب إلى عدد من رجال القرن الثامن الهجرى، انظر دليل مؤرخ المغرب الأقصى، جـ١ ص٥٥. وقام بتحقيق هذا الكتاب د/ سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد، ١٩٧٩.

٣١- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، بدون تاريخ، ص٢٤.

٣٢- طبعة بولاق، ١٨٨٢م.

٣٣- عز الدين موسى: النشاط الاقتصادى، ص٢٠ - ٢١.

٣٤- تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨.

٣٥- جزءان اعتنى بنشرهما عزت العطار الحسينى، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٥٥.

٣٦- مجريط، مطبعة روخس، ١٩٨٤.

٣٧- أخبار وتراجم أندلسية، مستخرجة من معجم السلفى، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٣.

٣٨- نشره برجشترایر، مصر، مطبعة السعادة، ١٩٢٣.

٣٩- ابن الآبار القضاعى: التكملة لكتاب الصلة، ثلاثة أجزاء نشرها عزت العطار، القاهرة، مطبعة الخانجى، ١٩٥٦، والمعجم فى أصحاب القاضى ابن على الصدفى، مجريط، مطبعة روخس، ١٨٨٥.

٤٠- بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفه، السفر الرابع والخامس، تحقيق إحسان عباس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤١- الجزء السابع، صححه ليفى بروفنسال، الرباط، مطبوعات معهد العلوم المغربية، المطبعة الجديدة، ١٩٣٧.
٤٢- ٢٣ جزءا تحقيق شعيب الارنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤.
٤٣- حققه ليفى بروفنسال، رباط الفتح، المطبعة الجديدة، ١٩٣٤.
٤٤- مجهول: نبذ تاريخه فى أخبار البربر فى القرون الوسطى، منتخبة من كتاب مفاخر البربر، حققه ليفى بروفنسال، رباط الفتح، المطبعة الجديدة، ١٩٣٤.
٤٥- أبو العباس أحمد الغبرينى: عنوان الدراسة فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة، بيجاية، بيروت، منشورات لجنة التأليف، ١٩٦٩.
٤٦- تحقيق عبد الله عنان، ٤ أجزاء، القاهرة، مطبعة الخانجى، الجزء الأول، ١٩٧٣، الجزء الثانى ١٩٧٤، الجزء الثالث، ١٩٧٥، الجزء الرابع ١٩٧٧.
٤٧- الرباط، دار المنصور، ١٩٧٢.
٤٨- جزءان، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٣.
٤٩- عبد القادر زمامة: أبو العباس ابن القاضى مؤرخ فاس، مجلة البحث العلمى السنة السادسة، العدد ١٤ - ١٥، عام ١٩٦٩.
٥٠- الجزائر، مطبعة الثعالبة، ١٩٠٨.
٥١- فاس، المطبعة الجديدة، ١٩٣٦.
٥٢- الرباط، المطبعة الوطنية، ١٩٢٩.
٥٣- طبعة حجرية، فاس، ١٣١٠هـ.
٥٤- حققه ليفى بروفنسال، القاهرة، دار الكتاب المصرى، ١٩٤٨م.
٥٥- حققه عبد الحفيظ منصور، تونس الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م.
٥٦- حققه إبراهيم شبوح، دمشق، مطبوعات مديرية إحياء التراث، ١٩٦٢.
٥٧- نشره برجشترایر، مصر، مطبعة السعادة، ١٩٢٣م.
٥٨- حقق الأجزاء الثلاثة الأولى منه مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٣٩م.
٥٩- حققه محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة، دار التراث، ١٩٧٢.
٦٠- حققه أودلف فور، الرباط، ١٩٥٨م.
٦١- مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٨٥٢، تاريخ تيمور، ميكروفيلم رقم ١٣٣٦٦.
٦٢- مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٢٤٩، تاريخ تيمور، ميكروفيلم رقم ٢٧٧٠٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦٣- تحقيق إبراهيم الابيارى وآخرون، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٤.
٦٤- تحقيق إبراهيم الابيارى، مصر، دار المعارف، بدون تاريخ.
٦٥- تعليق عبد القادر محداد، بيروت، دار الرائد العربى، ١٩٧٠.
٦٦- تشرع دى سلان، الجزائر، ١٩١١، وذكر عز الدين موسى أن القسم الأندلسى من هذا الكتاب مفقود، انظر النشاط الاقتصادى، ص٢٥، ولكن هذا القسم ليس مفقود كما ادعى عز الدين موسى، فقد حققه د. عبد الرحمن على الحجى تحت عنوان: جغرافية الأندلس وأوروبا، بيروت دار الرشاد للطباعة، ١٩٦٨.
٦٧- نشره دكتور سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨.
٦٨- انظر مقدمة الكتاب.
٦٩- حققه محمد الحاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.
٧٠- حققه اسماعيل العربى، بيروت، منشورات المكتب التجارى، ١٩٧٠.
٧١- مقتبس من الباب العاشر من كتاب مسالك الأبصار، نشرها محمد المنونى لأول مرة فى مجلة البحث العلمى، الرباط، جامعة محمد الخامس، العدد الأول، السنة الأولى ١٩٦٤.
٧٢- نقل القلقشندى من هذه المعلومات فى الجزء الخامس عن كتابه، صبح الأعشى فى صناعة الانشا.
٧٣- محمد المنونى، وصف المغرب أيام السلطان أبى الحسن المرينى ص١٣١، ١٣٢.
٧٤- بيروت، دار صادر.
٧٥- تحقيق د. إحسان عباس، بيروت مطابع هيدليرخ، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.
٧٦- الحسن الوزان "ليون الأفريقى" وصف أفريقيا، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميدة، الرياض، ١٩٧٨، ١٩٧٩.
٧٧- سامى الصفار: كتاب وصف أفريقيا، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض المجلد الثامن، ١٩٨١، ص٤٤١ - ٤٤٢.
٧٨- ترجمة عن الفرنسية، محمد حجى، ومحمد زنيبر وآخرون، الرباط، اللجنة الحديثة للتأليف والنشر، مكتبة المعارف، ١٩٨٤م.
٧٩- انظر مقدمة الكتاب، ص٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨٠- أخرجه جماعة من العلماء بأشراف الدكتور/ محمد حجى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨١.
٨١-الونشريس: المعيار، انظر مقدمة الناشر.
٨٢- محمد بن محمد العبدرى الفاسى: المدخل: القاهرة، دار الحديث ١٩٨١.
٨٣- نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال بعنوان ثلاث رسائل أندلسية فى أدب الحسبة والمحتسب، القاهرة، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٥٥.
٨٤- طبعة القاهرة، ١٩٥٠.
٨٥- فاس، المطبعة الحجرية، ١٣١٤هـ.
٨٦- مجلة البحث العلمى، السنة السادسة، عدد ١٤ - ١٥، عام ١٩٦٩، وعدد ٢٢ - ٢٣، السنة الحادية عشر، عام ١٩٧٤.
٨٧- ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور الأستاذ عبد العزيز سالم، والأستاذ محمد صلاح الدين القاهرة، مطبعة نهضة مصر، بدون تاريخ.
٨٨- الجزء الثانى، الإسكندرية، منشأة المعارف، بدون تاريخ.
٨٩- الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، بدون تاريخ.
٩٠- بيروت، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٣.
٩١- القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة.
٩٢- القاهرة، دار الفكر العربى، بدون تاريخ.
٩٣- القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٣.
٩٤- مقال بمجلة كلية الآداب بفاس، جامعة محمد بن عبد الله، العدد ٢ سنة ١٩٨٥ - ١٩٨٦.
٩٥- مقال بمجلة كلية الآداب بفاس، جامعة محمد بن عبد الله، العدد الرابع والخامس، ١٩٨٠ - ١٩٨١.
٩٦- حسن على حسن: الحضارة الإسلامية بالمغرب والأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين، القاهرة، مكتبة الخانجى ١٩٨٠.
٩٧- بدون تاريخ ومكان.
٩٨- الرباط، ١٩٦٠.
٩٩- بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٦٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

مدينة فاس منذ التأسيس حتى دخولها

في طاعة المرابطين

(١٩٢هـ ٤٥٥م/ ٨٠٨هـ ١٠٦٣م)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد الهزيمة التى منى بها العلويون فى موقعة فخ[1]، تمكن الإمام إدريس ابن عبد الله من الفرار إلى بلاد المغرب التى وصلها فى شهر ربيع الأول سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، حيث نزل مدينة أوليلى[2]. فاجتمعت إليه قبائل البربر وبايعوه على القيام بأمرهم[3]. واستطاع الإمام إدريس بن عبد الله أن يقيم إمارة بالمغرب الأقصى[4]. ولكنه سرعان ما توفى بمدينة أوليلى عام ١٧٥هـ/ ٧٩١م. تاركًا زوجته البربرية حاملاً، فوضعت له بعد شهرين من وفاته طفلاً سمى بإدريس على اسم أبيه[5] "فكفله المولى راشد وبذل له الجهد فى تأديبه وتدريبه وتعليمه، إلى أن بلغ إحدى عشر سنة، فأخذ له البيعة من قبائل البربر، حيث بويع له بجامع مدينة أوليلى فى يوم الجمعة غرة شهر ربيع الأول عام ١٨٦هـ/ ٨٠٢م"[6]. وأسرع الناس نحو الإمام إدريس بن إدريس من كل مكان، ووفدوا عليه من سائر البلدان، وكان ممن وفد عليه نحو الخمسمائة من أفريقية والأندلس من القيسية والأزد، وبنى يحصب وغيرهم، فسر الإمام إدريس بن إدريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، وجعلهم بطانته دون البربر، واستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدى الملقب بالملجوم[7]. "ولما رأى الإمام إدريس بن إدريس أن الأمر قد استقر له، وعظم ملكه وكثرت حاشيته، وضاقت بهم مدينة أوليلى، عزم على الانتقال منها، وأراد أن يبنى مدينة لنفسه يسكنها. هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته"[8].

وهذا يوضح لنا أن الإمام إدريس بن إدريس وضع الاعتبار السياسى الذى يفرض عليه الخروج من محيط مدينة أوليلى الضيق، التى لم تتسع لهؤلاء العرب وغيرهم ممن يقصدون العاصمة .. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن تشيد العواصم وتعميرها .. كان دائمًا من تقاليد الأسر الحاكمة فى الإسلام[9].

أولاً: تأسيس فاس[10] على يد الإمام إدريس بن إدريس:

فى عام ١٩٠هـ/ ٨٠٥ - ٨٠٦م "ركب الإمام إدريس بن إدريس مع خاصة من قومه إلى أن بلغ جبل زالغ[11]، فعزم على أن يبنى به مدينة، فظهر له أن الهوام تسكن به زمن الفيض، فانتقل لوادى سبو[12]، وعزم أيضًا أن يبنى به مدينة فظهر له أن المدود تصل إليها زمن المطر"[13]. وبذلك ظل تحديد موقع تلك المدينة مثار جدل وصعوبة[14].

وفى شهر المحرم من عام ١٩١هـ/ نوفمبر ٨٠٦م "خرج الإمام إدريس يختار لنفسه موضعًا يبنى فيه ما قدم عزم عليه، فوصل إلى وادى سبو حيث حمة خولان[15]. فأعجبه الموضع لقربه من الماء، فعزم على أن يبنى به المدينة، وشرع فى حفر الأساس، وعمل الجير وقطع الخشب، وابتدأ البناء، ثم نظر لوادى سبو، وكثرة ما يأتى به من المدود العظيمة زمن الشتاء، فخاف على الناس الهلكة، فرفع يده عنها، ورجع إلى مدينة أوليلى"[16].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت المحاولة الثالثة عندما طلب الإمام إدريس الثانى من وزيره عمير بن مصعب الأزدى أن يتخير موضعًا لمدينته الجديدة، فسار عمير فى جماعة من قومه لينظر ما طلب، فأخترق النواحى، حتى وصل إلى العيون التى يخرج منها نهر فاس، فرأى عيونًا كثيرة .. فأستطاب الماء، ثم سار مع مسيل الوادى، حتى وصل إلى موضع مدينة فاس، فنظر إلى ما بين العدوتين، فرأى غضة ملتفه بالأشجار مطردة العيون والأنهار فى موضع خيام يسكنها قوم من زناتة، فرجع عمير إلى الإمام إدريس، وأعلمه بما رآه من الأرض، وما استحسنه من كثرة الماء وطيب التربة، ورطوبة واعتدال الهواء فعجب الإمام إدريس ما رأى من ذلك.. فسأل عن أصحاب الأرض، فقيل له قوم من زواغة يعرفون ببنى برغش وبنى الخير، فبعث إليهم، واشترى منهم موضع المدينة .. وذلك فى سنة ١٩١هـ/ ٨٠٦ - ٨٠٧م، وشرع الإمام فى البناء[١٧]. وهكذا تم الاتفاق بين الإمام إدريس الثانى ووزيره على اختيار الموضع المناسب لإقامة المدينة بصفة نهائية[١٨].

ثانيا: تخطيط المدينة:

لم يكن العرب يقيمون المدن اعتباطا، إنما يمارسون ذلك بعد أن يرسموا خطتها التى على أساسها تنشأ، ويمكن أن نعد مدينة فاس نموذجا جيدا لتخطيط المدن الإسلامية التى أنشأها العرب فى الأقطار المختلفة، فهى تجمع بين الأغراض المدنية، حيث الوحدات العمرانية المختلفة التى تؤدى الوظائف العديدة للسكان إلى جانب التحصينات العسكرية، وتمدنا المصادر المهتمة بتاريخ فاس بتفصيلات مطولة عن تلك التحصينات، وعن الأعمال المدنية التى شيدت بها تأسيسها.

كان المسجد أول ما يختط من تكوينات معمارية، وهو من وجهة نظر فقهية من المميزات الحضرية للمدينة الإسلامية[١٩]. حيث يقام فى أكثر أجزاء المدينة سهولة فى الوصول، مما يشكل وظيفيا وعمرانيا نواة المدينة. "فما أن أسس الإمام إدريس الثانى عدوة الأندلس حتى بنى بها جامعا برحبة البئر وهو المعروف بجامع الأشياخ، وأقام فيه الخطبة، وبعد أن أسس عدوى القرويين، أخذ فى بناء جامعها، وهو المسجد المعروف بجامع الشرفاء، وأقام فيه الخطبة أيضا"[٢٠]، ثم ضرب الإمام أخبيته وقبابه[٢١] بالموضع المعروف بجرواوة[٢٢]. من عدوة الأندلس وأدار عليه حائطا من الخشب، وعندما انتقل من عدوة الأندلس إلى عدوة القرويين، اختط داره بالموضع المعروف بالمقرمده، وأخذ فى بناء داره المعروفة بدار القيطون[٢٣].

ومن أجل الإسراع بإنجاز مهمة بناء المدينة فقد أشرك الإمام إدريس المواطنين فى مهمة البناء، وحثهم على ذلك قائلا: "من ابتنى موضعا وغرسه فهو له هبة، فأبتنى الناس الديار، واغترسوا الثمار فكثرت العمارة"[٢٤].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يمكن أن تقام تلك الوحدات العمرانية بدون استعمال مواد البناء المتعددة وقد ساعد على سرعة عمران المدينة كثرة الأشجار التى وفرت للناس كل ما يلزمهم من الخشب للبناء[٢٥] "حيث كان الرجل يختط مكان داره وبستانه ويقطع منه الخشب ويبنى به دون أن يحتاج إلى خشب غيره"[٢٦].

ثم قام الإمام إدريس الثانى بتقسيم الأراضى المحيطة بالمدينة مما يلى الأسوار مباشرة على قبائل العرب والبربر[٢٧]. فأنزل القبائل كل بناحية فنزلت العرب القيسية بإزاء الأسوار الجنوبية من عدوة القرويين من باب أفريقية إلى باب الحديد، ونزلت الأزد بجوارهم، ونزل الحصبيون على الجهة المقابلة للقيسية أى بإزاء الأسوار الشمالية[٢٨]. ويجعل ابن أبى زرع هؤلاء العرب ثلاثمائة بيت من أهل القيروان، كانوا أول من نزل بالعدوة مع الإمام إدريس بن إدريس، فسميت بهم، ونسبت إليهم[٢٩]. أما قبائل البربر من صنهاجه ولواته وأشيخان فلم تحدد المصادر مواضعها، واكتفت بالقول أن كل قبيلة نزلت بناحيتها[٣٠]. ومن ذلك نرى أن فاسًا العربية كانت تقع فى عدوة القرويين حيث أنزل الإمام العرب معه[٣١].

وإلى جانب المسلمين من العرب والبربر، حوت المدينة أيضًا أعدادًا من اليهود[٣٢]. حيث أنزل الإمام إدريس الثانى بعدوة القرويين بناحية أغلان إلى باب حصن سعدون خلق كثير من اليهود وغيرهم، فبنوا البساتين والحوانيت والرباع ورتبهم الإمام أحسن ترتيب فى الإسكان[٣٣].

أما عدوة الأندلس فأنزل الإمام إدريس بها جميع أجناده وقواده وجعل خيله وغنمه وأبله بأيدى ثقاته بها، ولم ينزل معه بعدوه القرويين غير موالية وحشمه وسائر رعيته من التجار والسوقة[٣٤]. وهكذا جعل إدريس الثانى عدوة الأندلس سكنًا لجندة البربر، ومناخًا للدواب وخيول الفرسان، أما حاشيته وخاصته من العرب فأستقرت معه بالقرويين.[٣٥]

ثم خصص الأراضى المجاورة للمسجد لتكون أسواقًا حسب تخصصها حيث بنى القيسارية[٣٦]. وهى سوق المدينة المركزى، كما أقيمت الأسواق والحوانيت حول الجامع من كل جانب[٣٧]. ورتب الإمام إدريس الأسواق أحسن ترتيب، وجعل كل سوق يختص بنوع لا يباع فيه سواه[٣٨].

وبعد أن أسس الإمام إدريس الثانى عدوة الأندلس فى غرة ربيع الأول عام ١٩٢هـ ٤ يناير ٨٠٨م أدار السور عليها مبتدئًا من جهة القبلة، وعندما أسس عدوة القرويين أدار عليهما السور وابتدأه من رأس عين علون[٣٩]. وتميزت أسوار مدينة فاس بالمناعة والإرتفاع[٤٠] حيث كانت تمثل حزامًا دفاعيًا حول المدينة[٤١].

وفتحت فى هذه الأسوار بعض الأبواب، ففى عدوة الأندلس، تذكر المصادر ستة أبواب لهذه العدوة زمن التأسيس هى: باب القبلة، باب الفوارة، باب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

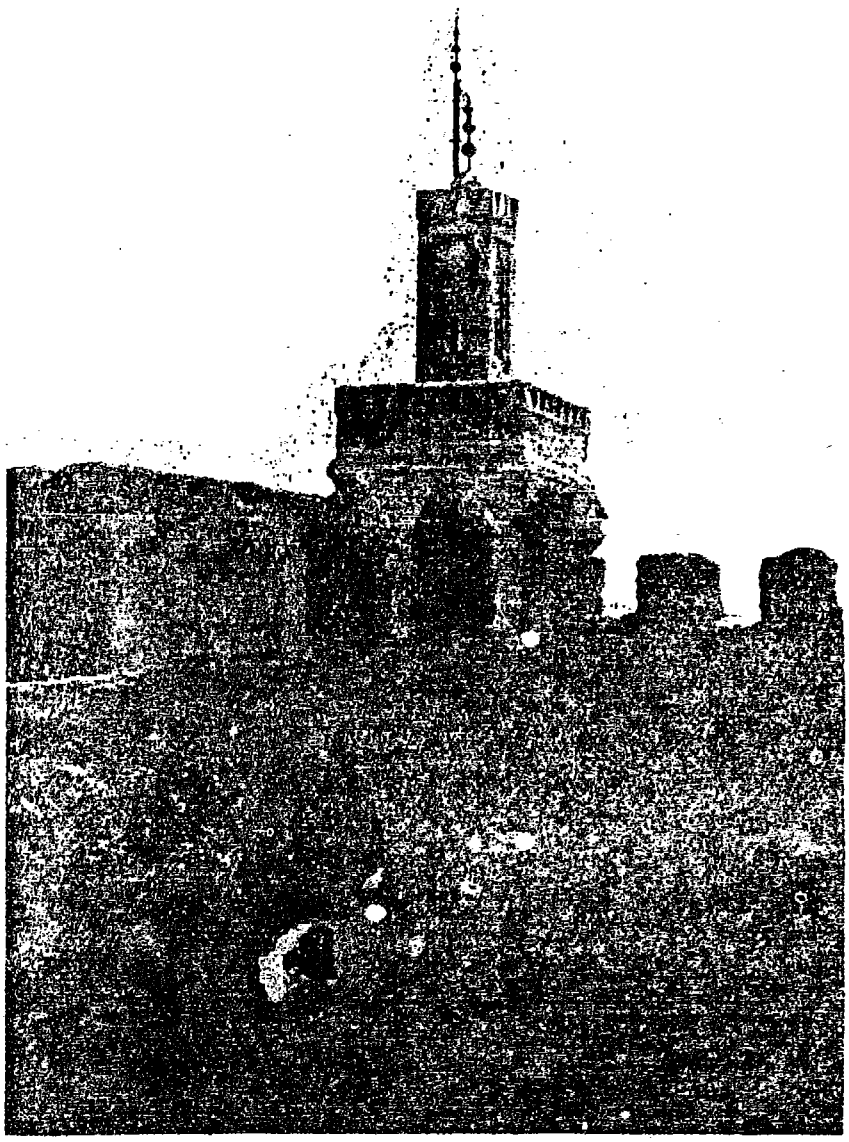

مثال من أسوار فاس وصوامعها العتيقة

نقلا عن الجزائى : جنى زهرة الاس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المخيفة، باب الشيبوبة، باب أبى سفيان، باب الكنيسة[٤٢]. كذلك فتحت فى أسوار عدوة القرويين ستة أبواب هى: باب أفريقية، باب الفرس، باب الفيصل، باب الفرج، باب الحديد، وباب القلعة[٤٣]. ويذكر كل من ابن أبى زرع وابن القاضى المكناسى. ابواب عدوة القرويين فى شئ من الاختلاف اليسير، حيث اتفقا على أن أبواب المدينة هى: باب أفريقية، باب حصن سعدون، باب الفرس، باب الفيصل، باب الفرج، وباب القلعة.[٤٤]

وكان الهدف من فتح الأبواب بسور المدينة تنظيم الاتصال مع مختلف الجهات الخارجة عن نطاق السور[٤٥]. مثال ذلك أن باب الفيصل بعدوة القرويين وباب الشيبوبة بعدوة الأندلس كانا ينظمان حركة الاتصال بين العدوتين، أما باب الفوارة بعدوة الأندلس فكان ينظم عملية الاتصال بمدينة سجلماسة[٤٥]، كما ينظم باب أبى سفيان بنفس العدوة حركة الاتصال مع بلاد غمارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

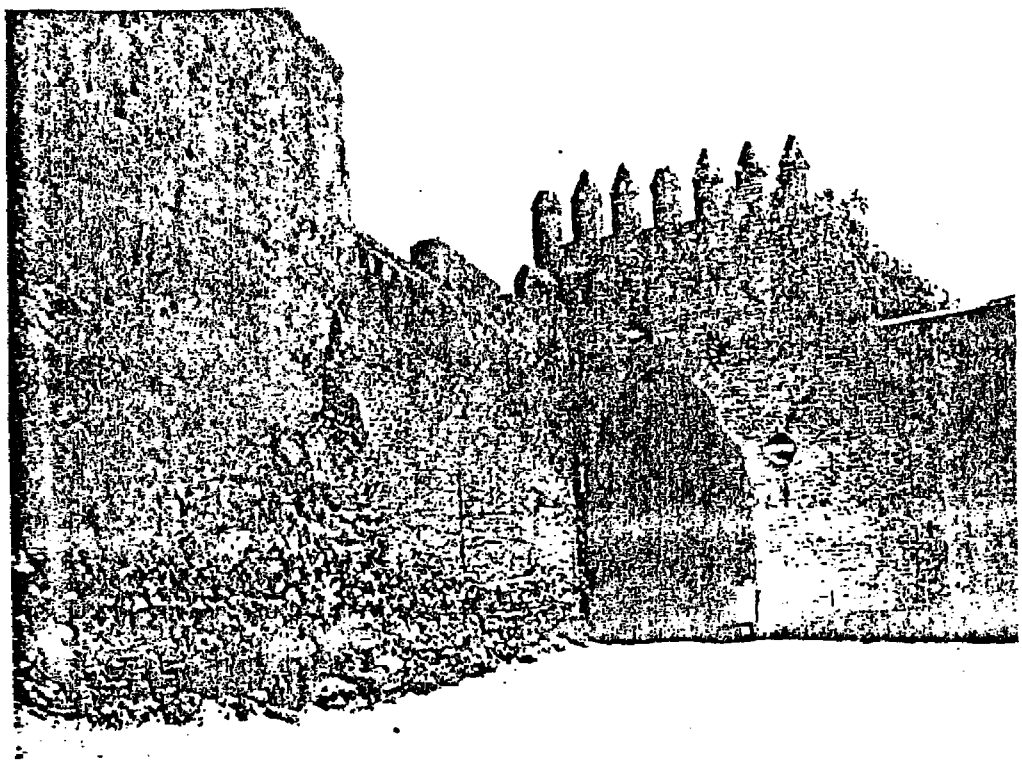

باب الحديد

نقلاً عن الجزنائى : جنى زهرة الآس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

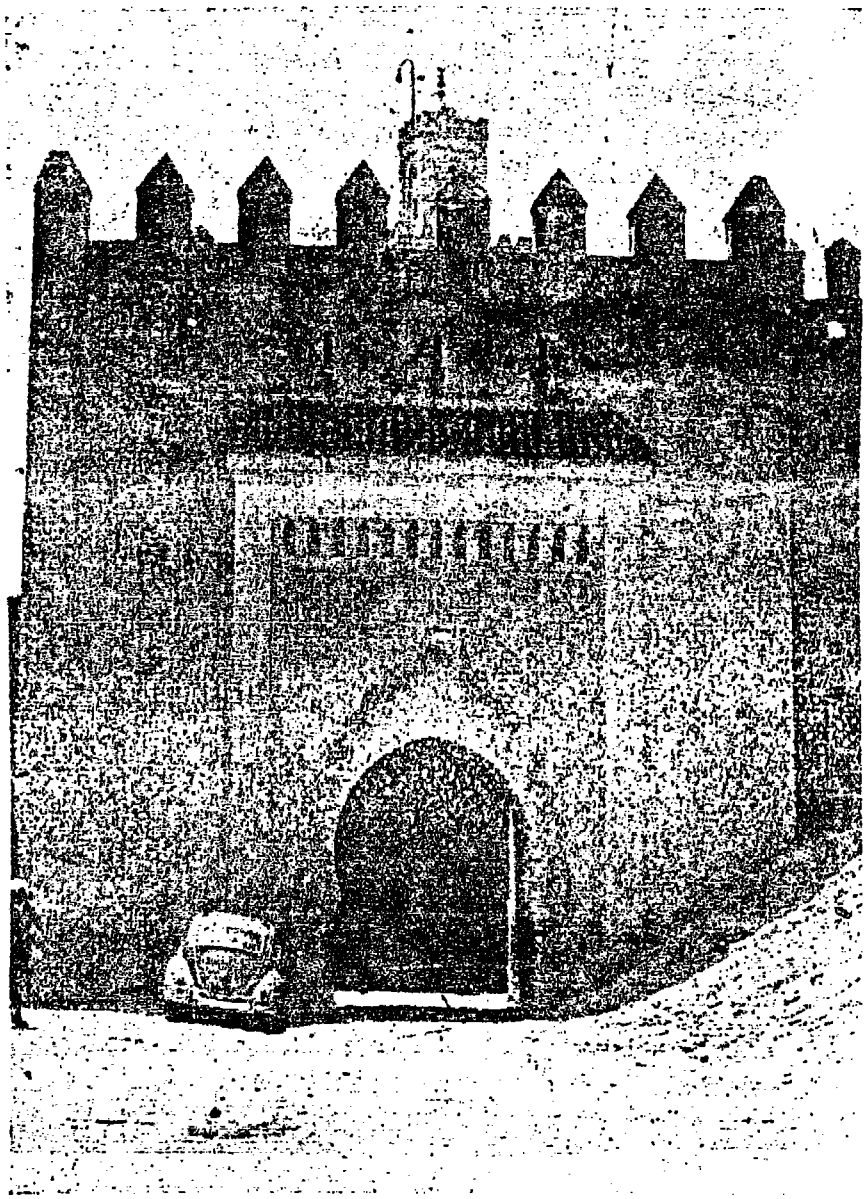

باب عجيسة (الكيسة) الشهير

نقلا عن الجزنائى : جنى زهـرة الاس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والريف[٤٦] فى حين كان باب الكنيسة يؤدى إلى مدينة تلمسان[٤٧].

مما سبق يتضح أن مدينة فاس كانت عبارة عن مدينتين مستقلتين تم تأسيسهما على يد الإمام إدريس الثانى فى فترة استغرقت ما يقرب من عام كامل، ففى يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول عام ١٩٢هـ/ ٤ يناير ٨٠٨م أسس عدوة الأندلس، وبعدها بسنه أسس عدوة القرويين فى غرة ربيع الآخر عام ١٩٣هـ/ ٨٠٩م[٤٨].

لكن هذه الروايات السابقة التى تعزو تأسيس فاس على يد إدريس الثانى، كانت محلاً لدراسة قام بها المستشرق الفرنسى المعروف الأستاذ "ليفى بروفنسال" ونشر نتيجة أبحاثه فى كتيب عرض فيه نظرية مؤداها أن إدريس الأول، وليس إدريس الثانى هو الذى أسس مدينة فاس، وأن بناء المدينة حدث فى سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٩م فى الموضع الذى تقوم عليه عدوة الأندلس، وأن إدريس بن إدريس أسس عدوة القرويين فى سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م فى غرب مدينة أبيه على الضفة اليسرى من وادى فاس[٤٩]. واستند الأستاذ ليفى بروفنسال فى ذلك إلى بعض الروايات الجانبية التى وردت فى المصادر التى لا تعالج تاريخ مدينة فاس، أو تاريخ المغرب نفسه[٥٠]. ويذكر ليفى بروفنسال إنه من المحقق وقوع لبس بين إنشاء مدينة فاس وإنشاء مدينة "العالية" وأن هذا اللبس قد ظهر منذ أن أطلق اسم فاس على المدينتين معًا، ومما زاد هذا اللبس تشابه اسم المؤسسين، ويعتقد أن أساس هذا اللبس التاريخى يرجع إلى خطأ يسير فى القراءة بين رقمى سبعين وتسعين، وهو خطأ أدى إلى تحريف سنة ١٧٢هـ إلى سنة ١٩٢هـ[٥١].

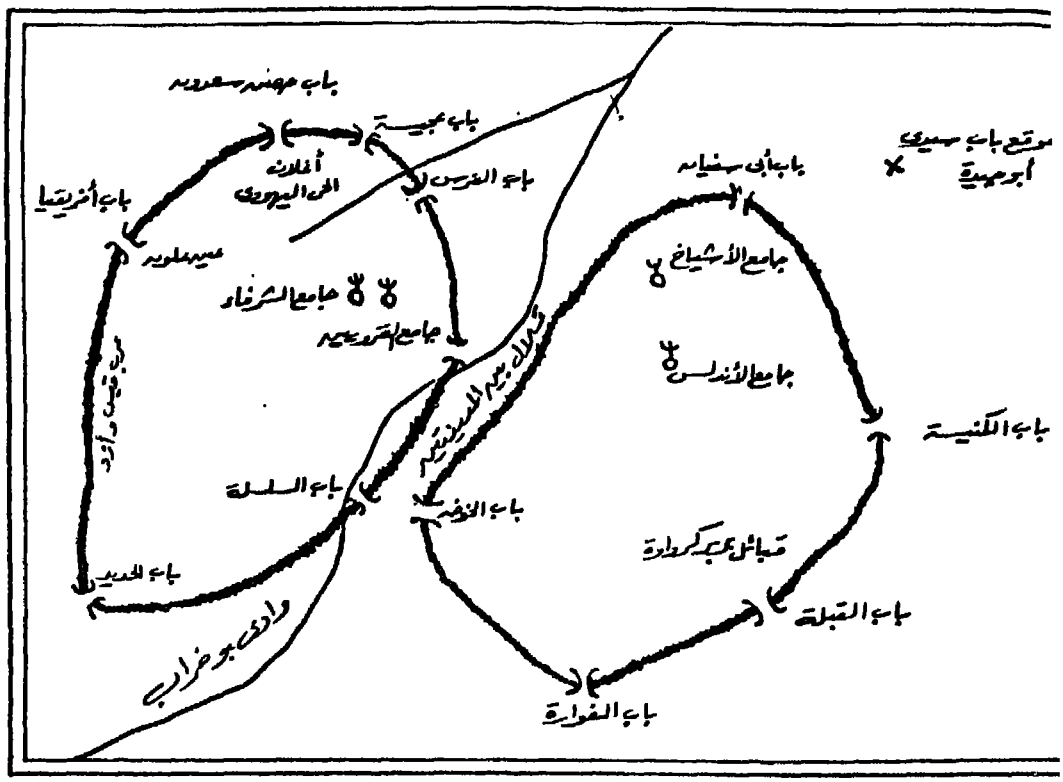

المدينتان الأصليتان حسب هـ. كابار

نقلاً عن روجية لوطورنو : فاس قبل الحماية جـ١ ص٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والذى دفع بروفنسال إلى تبنى هذا الرأى هو وجود عملة مضروبة فى فاس ترجع إلى سنتى ١٨٥هـ وسنة ١٨٩هـ، أى قبل سنة ١٩٢هـ وهو التاريخ المتواتر لبناء فاس، بينما تحمل النقود التى ضربها إدريس الثانى اسم مدينة "العالية" وليس اسم فاس[٥٢].

ويذهب تراس إلى أن إدريس الأول قد أقام فى سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٩هـ على نفس حى الأندلسيين مدينة صغيرة للبربر .. وفى عام ١٩٣هـ/ ٨٠٩م أقام إدريس الثانى على الشاطئ الآخر حى القرويين الحالى، حيث كان للأمير قصره الذى أعطاه اسم "العاليه"[٥٣].

وأيد نظرية بروفنسال هذه كثير من المستشرقين، فعلق "روجيه لوطورنو"[٥٤] على هذه النظرية بقوله: إن هذه النظرية تستند على دلائل حقيقية لا يشوبها سوى عيب واحد - حسب البعض - وهو التضارب مع رواية الأنيس المطرب .. ولذلك يبدو من المعقول الأنتردد فى الانحياز إلى استنتاجات بروفنسال، وقبول الترتيب التاريخى الذى يفترضه.

كما أيد هذه النظرية بعض المؤرخين العرب[٥٥]. فى حين عارضها إسماعيل العربى[٥٦] بشده مناقشًا جميع الأخبار والروايات التى تتصل بالموضوع، مبينًا نواحى القوة والضعف فيها، مستبعدًا تمامًا الرأى القائل بأن إدريس الأول قد بنى مدينة فاس فى شهر رمضان عام ١٧٢هـ.

وإسماعيل العربى وإن استطاع أن يناقش النصوص التاريخية التى اعتمد عليها بروفنسال فى إثبات نظريته ويقدم لنا وجهة نظرة سليمة، إلا أنه لم يستطع أن يقدم دليلاً قويًا فى مسألة الدراهم التى اعتمد عليها بروفنسال، وأنهى اعتراضه على نظرية بروفنسال مفترضًا ضرورة صياغة أخرى للقضية، حيث لم يتمكن بسبب نقص المعلومات فى المرحلة الحالية من إثبات سبب اعتراضه[٥٧].

ويميل الباحث إلى الأخذ برأى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد[٥٨] الذى يأخذ برأى بروفنسال - رغم أنه ليس نهائيًا - فعلى فرض أن إدريس الأول بنى قرية فاس الأولى - وهذا أمر صعب خلال فترة إمامته القصيرة - فإن ذلك لا يقلل من أصالة وعظمة العمل الذى قام به إدريس الثانى بأنى فاس الحقيقية.

وقد تمتعت فاس بموقعها الجغرافى الممتاز وسط المدن والمراكز المختلفة فى المغرب، حيث تتقاطع فيها خطوط الاتصال بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فهى تقع عند ملتقى طريقين رئيسيين حددتهما طبيعة الأرض هناك، فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقصى المضيق الجبلى الذى تحرس تازا مدخله الشرقى[٥٩]. كما أنها تقع فى النهاية الغربية لسهل السايس الغنى على موضع فى وادى فاس، ويشق فى وسطها نهر سبو الكثير الماء[٦٠]. وتحيط مدينة فاس مرتفعات وجبال من كل جهة باستثناء الجهة الجنوبية، وسجل ابن فضل الله العمرى هذه الحقيقة بقوله: "تكتنف الجبال مدينة فاس"[٦١]. ففى شرقها جبل مديونه الذى يمتد إلى الجنوب، ويتصل هذا الجبل بجنوبه بجبال درن، وفى شمالها يقع جبل زرهون وزالغ، وتقع جبال غماره فى الغرب من فاس[٦٢].

وتدخل مدينة فاس ضمن المنطقة التى تقع بين خطى عرض ٢٨ درجة، ٣٦ درجة شمالاً، وخطى طول ١٢ درجة و١١ درجة غربًا، وهى تتأثر إلى حد كبير بمؤثرات مناخ البحر المتوسط، الذى تتمثل فيه ثلاث صفات رئيسية وهى سقوط الأمطار فى فصل الشتاء ودفئه، وجفاف فصل الصيف، وارتفاع درجة حرارته، ووجود نسبة عالية من ساعات النهار المشمسة[٦٣]، وتميزت فاس باعتدال حرها وبردها، كما يعتدل مناخها فى فصلى الخريف والربيع.[٦٤]

ثالثًا: تاريخ مدينة فاس منذ إنشائها حتى محاولات المرابطين الاستيلاء عليها:

فاس فى عصر الأدارسة:

لم تلبث عدوة الأندلس بفاس أن نمى عمرانها، وذلك عندما وصل أهل ضاحية الربض من مدينة قرطبة فى حوالى ٢٠٢هـ/ ٨١٧م[٦٥]. بعد أن أوقع بهم الإمام الحكم بن هشام وأجلاهم عن الأندلس ، فنزل أغلبهم مدينة فاس، بعدوة الأندلس منها، وشرعوا فى البناء، فسميت بهم[٦٦]. وكان لهؤلاء الأندلسيين أثر كبير فى تنمية هذه العدوة، فأعطوها طابعًا جديدًا لمدينة منظمة لم يكن لها من قبل، فنمت هذه العدوة على النمط الأندلسى[٦٧].

وتذكر المصادر أن مدينة فاس نمت بسرعة حيث عمرت الأرض بالزراعة وكثرت الخيرات، وزادت العمارات، وقصدها الناس من جميع البلاد، مثل التجار وأهل الصناعات[٦٨]. وقد شارك هؤلاء المهاجرون من الأندلس ومن القيروان فى بناء فاس، بفضل ما حمله هؤلاء من تراث أهل الأندلس الشامى الأصل، ومن تراث أهل أفريقية الذى ظهرت فيه مؤثرات مصر والشام والعراق[٦٩].

ولكن تمدن العاصمة الإدريسية كان محدودا فى ذلك الوقت، فصحيح أن إدريس بن إدريس عاش عشرين عاما بعد أن وضع حجر الأساس لمدينته العربية إذ توفى فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عام ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، وأن تلك المدة كانت كافية لكى تتسع المدينة وتكبر، ولكنها لم تكن كافية بالصورة التى تصفها بها المصادر[٧٠].

وبعد وفاة الإمام إدريس بن إدريس تولى الإمامه بعده ابنه محمد الذى قسم دولة الأدارسة بين أخوته، وأقام هو بمدينة فاس، إلى أن توفى فى عام ٢٢١هـ/ ٨٣٦ - ٧٣٨م، فبويع لابنه على بالولاية من بعده، وفى أيام على بن محمد تمتعت فاس بالأمن، حتى توفى فى شهر رجب ٢٣٤هـ/ فبراير ٨٤٨م[٧١]. وقام بأمر الأدارسة من بعده يحيى بن محمد بن إدريس الذى كثرت فى عهده العمارة بالمدينة، حيث اهتم بتزويد عاصمته بالمبانى ذات المنافع العامة، فبنى بها الحمامات والفنادق التى أقيمت لخدمة الوافدين على المدينة من التجار وغيرهم[٧٢]، وبلغت المدينة أوجهًا من حيث البناء والعمران[٧٣].

وعندما توفى يحيى بن محمد ولى بعده ابنه يحيى بن يحيى بن محمد، فى تاريخ لا تحدده لنا المصادر[٧٤]. وأساء هذا الأمير السيرة ولم يهتد بهدى آبائه فمات ندامة على سقطه حدثت منه[٧٥]. فبايع أهل فاس بالولاية لعلى بن عمر بن إدريس الذى لم يستقر له الأمر حيث خرج عليه عبد الرازق الفهرى الخارجى الذى تمكن من الاستيلاء على عدوة الأندلس، فى حيث امتنعت عليه عدوة القرويين، حيث بعث أهلها إلى يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بالعوام، فولوه على أنفسهم، وحارب يحيى بن القاسم عبد الرازق الفهرى وتمكن من إخراجه من عدوة الأندلس، فبايعه أهلها، وظل يحيى بن القاسم أميرًا على فاس وأعمالها إلى أن قتل سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤ - ٩٠٥م[٧٦] فتولى بعده يحيى بن إدريس جميع أعمال المغرب، وحكم يحيى مدينة فاس من عام ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م إلى سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م[٧٧].

الصراع بين الدولة الأموية فى الأندلس والدولة الفاطمية فى المغرب حول فاس:

وفى عام ٣٠٥هـ/ ٩٠٤ - ٩٠٥م امتدت أنظار الدولة الفاطمية بالمغرب إلى ملك الأدارسة بفاس، حيث تقدم مصالة بن حبوس قائد عبيد الله الشيعى إلى مدينة فاس، فحاصرها مدة، إلى أن صالحه أميرها يحيى بن إدريس بمال، وكتب له بالبيعة لعبيد الله الشيعى صاحب أفريقية، ورجع مصالة إلى القيروان[٧٨].

ثم أعاد قائد الفاطميين - مصالة بن حبوس - الكرة مرة ثانية حيث قام فى عام ٣٠٩هـ/ ٩٢١م بالإغارة على فاس ونجح فى دخولها، وقبض على أميرها يحيى بن إدريس، وقدم عليها عاملا من قبل الفاطميين يدعى ريحان المكناسى الذى ظل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاملاً عليها مدة ثلاثة أعوام إلى أن قام عليه بها الحسن بن محمد بن القاسم ابن إدريس ونجح فى إخراجه منها[٧٩].

وفى عام ٣١١هـ/ ٩٢٣م خرج الحسن بن محمد بن القاسم من فاس لقتال موسى ابن أبى العافية[٨٠]. واستطاع أن يوقع بعسكر ابن أبى العافية هزيمة نكراء، ولكن عند رجوع الأمير الإدريسى إلى مدينته، غدر به عامله على المدينة، حامد بن حمدان الذى استطاع أن يحكم لموسى بن أبى العافية على عدوتى فاس معًا[٨١]. وبذلك وقعت مدينة فاس تحت سيطرة موسى بن أبى العافية، الذى ملك عدوتى فاس عام ٣١٣هـ/ ٩٢٥م وبايعه أهلها واستقام له الأمر فيها[٨٢].

وبعد أن أصبح موسى بن أبى العافية أميرًا على فاس، عمل على التحالف مع الدولة الأموية بالأندلس، فبايع لعبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس، وقام بدعوته وخطب له على جميع منابر عمله. أقلق هذا التحالف الفاطميين بالمغرب، فوجه عبيد الله المهدى أحد قواده وهو حميد بن يصلى المكناسى فى سنة ٣٢١هـ/ ٣٣٣م ومعه حامد بن حمدان الهمذانى فى جيش كثيف لقتال موسى بن أبى العافية، فكانت بينهما حروب كثيرة انهزم فيها ابن أبى العافية ودخل حميد بن يصلى فاس وولى عليها حامد بن حمدان ، وذلك فى سنة ٣٢١هـ/ ٣٣٣م، وبذلك عادت مدينة فاس إلى سيطرة الفاطميين مرة أخرى، وقد ظل عامل الفاطميين على فاس إلى أن ثار عليه أحمد بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن أبى سهل الذى قتل حامد وبعث برأسه وولده إلى موسى بن أبى العافية، فبعث بهم موسى إلى الخليفة الأموى الناصر لدين الله بقرطبة، وأصبح أحمد بن أبى بكر عاملاً على فاس لموسى بن أبى العافية[٨٣].

وهكذا عادت الدعوة فى فاس إلى الخليفة عبد الرحمن الناصرى[٨٤]. ومنذ ذلك الوقت أصبحت فاس على مسرح الرهان، حيث تنافس على امتلاكها الفاطميون والأمويون. وأرسل الخليفة الفاطمى أبو القاسم عبيد الله المهدى قائده ميسور الفتى إلى المغرب فى عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م ليعيد مدينة فاس لحوزة الفاطميين، فتقدم ميسور وحاصر مدينة فاس أيامًا إلى أن خرج إليه أحمد بن أبى بكر عاملها مبايعًا، ولكن ميسور قبض عليه وشخصه للمهدية، وهنا امتنع أهل مدينة فاس وسدوا مدينتهم فى وجه ميسور الفتى، ولم يمكنوه من دخولها، وقدموا على أنفسهم الحسن ابن القاسم اللواتى، فحاصرهم ميسور مدة حتى رغبوا إلى السلم، مشتطرين على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنفسهم الطاعة والأتاوة، مبايعين لأبى القاسم المهدى، فتقبل ميسور منهم ذلك، وأقر الحسن بن القاسم اللواتى على ولاية فاس[٨٥].

استمر الحسن اللواتى عاملا على فاس حتى عام ٣٤١هـ/ ٩٥٢م، حيث ثار عليه أحمد بن أبى بكر - بعد أن أطلق الفاطميون سراحه، فتخلى الحسن اللواتى له عند مدينة فاس[٨٦]. وعادت الدعوة فى فاس للأمويين بالأندلس حيث بايع أهلها الخليفة الناصر لدين الله، فولى عليهم محمد بن أبى الخير أميرا على عدوتى فاس، الذى استخلف عليهما ابن عمه أحمد بن أبى بكر بن عثمان الزناتى وارتحل هو إلى الأندلس[٨٧].

غضب المعز لدين الله الفاطمى لخروج فاس عن طاعته وانضوائها تحت لواء الخلافة الأموية بالأندلس، فأرسل قائده جوهرا الصقلى للإغارة على المغرب ونشر دعوته هناك[٨٨]. وقام جوهر بحصار مدينة فاس عام ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م، حيث جرت وقائع عظيمة مدة ثلاثة عشر يوما، انتهت بوقوع أمير فاس أحمد بن أبى بكر أسيرا، ونهب جوهر المدينة وسبى أهلها، وهدم سورها، وكان الحادث فيها عظيما، وذلك فى ٢٠ رمضان عام ٣٤٩هـ/ ١٣ نوفمبر ٩٦٠م[٨٩]. ورجع جوهر الصقلى إلى القيروان بعد أن طرد عامل الأمويين من فاس وقطع عنها دعوتهم وردها إلى الفاطميين[٩٠].

ظل النفوذ الفاطمى قائما بفاس حتى أرسل الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦م) قائده غالب[٩١]. إلى المغرب سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م الذى تكمن من الاستيلاء على فاس، واستعمل عليها محمد على بن قشوش فى عدوة القرويين، وعبد الكريم بن ثعلبة فى عدوة الأندلس، وبذلك عادت فاس إلى حكم بنى أمية.[٩٢]

ولكن لم تمض سوى ست سنوات، حتى زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى إلى المغرب عام ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م[٩٣]. ونزل على مدينة فاس، وقتل عامليها واستعمل عليهما محمد بن عامر المكناسى، وبذلك عاد النفوذ الفاطمى إلى فاس حتى سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م[٩٤]. حيث أرسل المنصور بن أبى عامر صاحب الأندلس ابن عمه عسكلاجة - أبا الحكم عمرو بن عبد الله - فزحف من الأندلس إلى مدينة فاس حيث دخل عدوة الأندلس منها، وخطب لبنى أمية، فى حين بقى محمد بن عامر عامل الفاطميين بعدوة القرويين إلى سنة ٣٧٦هـ/ ٩٧٦م حيث دخلها "أبو بياش" من قبل الأمويين فقتل عاملها محمد بن عامر وخطب بهما أيضا لبنى أمية[٩٥].

فى عام ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م استطاع زيرى بن عطية المغراوى[٩٦]. أن يستولى على مدينة فاس، واستقام له الأمر فيها، وقوى سلطانه، فأسكن عشيرته فى أنحائها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبالقرب منها، وفى عام ٣٨٢هـ/ ٩٢٢م استدعى المنصور بن أبى عامر، زيرى ابن عطية إلى الأندلس، فرحل زيرى إليها مستخلفا ابنه المعز على المغرب[٩٧]. وفى هذه الأثناء انتهز الأمير يدو بن يعلى زعيم بنى يفرن[٩٨]. فرصة غياب زيرى بن عطية بالأندلس، وتوجه إلى مدينة فاس فدخل عدوة الأندلس منها وملكها، واتصل خبر سقوط عدوة الأندلس فى يد يدو بن يعلى، بزيرى بن عطية أثناء قفوله من الأندلس فأسرع نحوه مستنفرا قبيلة مغراوة لاسترداد فاس، ودارت الحرب سجالا بين الفريقين هلك فيها خلق كثير من القبيلتين مغراوة وبنى يفرن، حتى تمكن الأمير زيرى بن عطية من هزيمة يدو بن يعلى، ودخول المدينة عنوة، حيث قتله ومثل به وبعث برأسه للمنصور بن أبى عامر، وذلك فى عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م.[٩٩]

واستمرت علاقة زيرى بن عطية بالمنصور بن أبى عامر حسنة، إلى أن ساء ما بينهما فى عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦ - ٩٩٧م، وذلك عندما ألفى زيرى بن عطية ذكر المنصور بن أبى عامر من الخطبة، وأقتصر على ذكر خليفته هشام، ولما وصل خبر ذلك إلى المنصور أرسل جيشا عظيما بقيادة مولاه واضح لمحاربته، إلا أن زيرى تمكن من هزيمة جيش واضح الذى فر إلى طنجة مستصرخا المنصور، طالبا منه أن يمده بالخيل والأموال والرجال، فأرسل إليه المنصور ابنه عبد الملك فى جمع من عسكر الأندلس وقوادها، واستطاع هذا الجيش إنزال الهزيمة بجموع زناته بقيادة زيرى ابن عطية الذى فر إلى مدينة فاس فى شرزمة من أصحابه وبنى عمه، ولكن أغلق أهل فاس أبواب مدينتهم فى وجهة، فى حين تمكن عبد الملك بن المنصور من دخول فاس فى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م فأستقبله أهلها مستبشرين به فأحسن لقاءهم[١٠٠].

وأقام عبد الملك بن المنصور مدة ستة أشهر بفاس فرأى الناس من عدله وفضله مالم يروه من قبل، ثم صرفه والده عنها إلى الأندلس، وبعث إليه عوضًا عنه عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة الذى قام عليها واليًا إلى شهر صفر من عام ٣٨٩هـ/ ٩٩٨ - ٩٩٩م حيث عزله المنصور عنها، وولاها واضحًا الفتى[١٠١].

هذا وكان زيرى بن عطية قد اتجه إلى الصحراء هاربًا بعد أن سد أهل فاس ميدنتهم فى وجهة، فنزل بلاد صنهاجة، حيث وجد أهلها قد اختلفوا على ملكهم باديس بن منصور بن بلكين بعد وفاة أبيه، فبعث زيرى إلى قبائل زناته، فأتى منهم خلق كثير من مغراوة وغيرهم، حيث اغتنم زيرى الفرصة، وزحف بهم إلى صنهاجة، وتمكن من هزيمة الجيوش الصنهاجة إلى أن توفى فى عام ٣٩١هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠٠٠م[١٠٢]. فبايعت قبائل زناته ابنه المعز، الذى قام بملك أبيه، وضبط أمر زناته وصالح المنصور بن أبى عامر، وقام بدعوته ورجع إلى طاعته، وعندما توفى المنصور بايع لابنه عبد الملك المظفر أيضًا، ودعى له على منابره، فعزل المظفر واضحًا الفتى عن ولاية فاس وسائر أعمال المغرب، وعهد بها فى سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م إلى المعز بن زيرى، مشترطًا عليه أن يرسل إليه خيلاً فى كل سنة وأن يسمله ولده معنصر رهينة[١٠٣].

ونعمت مدينة فاس فى عهد المعز بن زيرى بالرخاء والأمن إلى أن توفى فى جمادى الأولى سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م[١٠٤]. فخلفه ابنه حمامه بن المعز[١٠٥] الذى قام بأمر قبائل زناته واستوطن مدينة فاس[١٠٦]. وكانت الخلافة الأموية فى قرطبة قد انقرضت فى هذه السنة، مما أدى إلى استفحال أمر الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلالها بالأمر.[١٠٧]

صراع القوى الداخلية للسيطرة على فاس:

ولكن لم تكد مدينة فاس تنعم بالاستقرار حتى قام ثائر من ثوار بنى يفرن وهو تميم بن زيرى اليفرنى[١٠٨] الذى زحف إلى مدينة فاس فى جموع قبائل بنى يفرن، ومن إنضم إليهم من زناته، فخرج إليه حمامه بن المعز من فاس فى جموع قبائل مغراوة، حيث كانت بينهم حرب شديدة إنهزم فيها حمامة بن المعز وفر إلى مدينة وجدة[١٠٩]. وتمكن تميم اليفرنى من دخول مدينة فاس فى جمادى الآخرة عام ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م، حيث قتل بها كثيرًا من اليهود، وأخذ أموالهم وسبى نساءهم[١١٠].

وأقام تميم اليفرنى بمدينة فاس قرابة السبعة أعوام، وفى خلال ذلك حاول حمامة بن المعز أن يجمع قواته ويعيد الكرة لاسترداد فاس فخرج من مدينة وجدة إلى تنس[١١١]، واستجاش بقبائل مغراوة، حيث اجتمعوا عليه فزحف بهم إلى مدينة فاس ويبدو أن هذه الجيوش المغراوية كانت كبيرة، حيث فر تميم اليفرنى من فاس إلى مدينة شالة[١١٢]. دون مقاومة تذكر، وذلك فى عام ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، وأقام حمامه بن المعز على ملك مدينة فاس، وكثير من أعمال المغرب، إلى أن توفى فى عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م[١١٣].

هكذا تطلعت القوى الخارجية من الفاطميين والأمويين، والقوى المحلية متمثلة فى قبائل مكناسة ومغراوة وبنى يفرن للاستيلاء على مدينة فاس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخلف حمامة بن المعز ابنه دوناس على حكم مدينة فاس، وجميع ما كان بيد أبيه من أعمال المغرب ومدنه، وفي أيامه عظمت مدينة فاس، وعمرت بالبناء، حيث أدار دوناس السور على الأرباض وبنى المساجد والحمامات والفنادق فقصدها الناس من جميع النواحي[١١٤].

وبعد وفاة دوناس بمدينة فاس في شهر شوال عام ٤٥٢هـ/ ١٠٦١م خلفه ابنية الفتوح وعجيسة حيث استوطن الفتوح عدوة الأندلس، بينما ولى أخاه عدوة القرويين وبدأ الأميران عهديهما بتحصين المدينة، حيث بنى، حيث بنى الفتوح بعدوة الأندلس قصبة منيعة، وفتح بها بابًا سماه باسمه، كذلك بنى عجيسة قصبة مثلها وبابًا بعدوة القرويين[١١٥].

لكن لم تنعم المدينة بحكم هذين الأميرين، إذ سرعان ما دبت العداوة بينهما، حيث نازع عجيسة أخاه الفتوح الأمر، وامتنع عليه بعدوة القرويين، فسار الفتوح لقتاله، ودارت رحى الحرب بين العدوتين، تلك الحرب التي لم يكن لأهل عدوتي فاس فيها شغل إلا القتال، إلى أن ظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله، وذلك في عام ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م وظل الفتوح أميرًا على عدوتي فاس إلى أن حاصر المرابطون المدينة[١١٦].

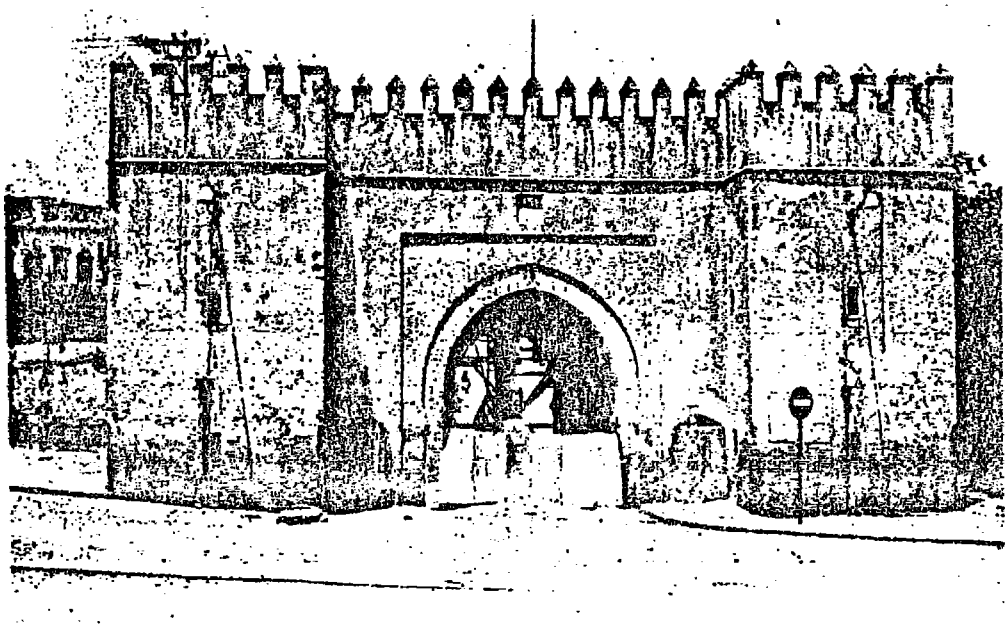

باب فتوح أكبر أبواب عدوة الأندلس

نقلا عن الجزنائى : جنى زهـــرة الآس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخلال سنوات تلك الحروب بلغت الفوضى والاضطرابات زروتها بمدينة فاس "فكثر الخوف، وقويت الفتن، واشتدت المجاعة فقلت الأسعار"[١١٧]. وبذلك تدهورت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مدينة فاس في آخر حكم الزناتين، وقبيل دخول المرابطين المدينة، ويصور لنا المؤرخون مدى تدهور تلك الأوضاع بصور غريبة حيث "عدمت الأقوات في مدينة فاس وأعمالها أيام الفتوح بن دوناس، وابن عمه معنصر، إلى أن بلغ سعر الدقيق بفاس وغيرها أوقية بدرهم"[١١٨]. "وكان رؤساء مغراوة وبني يفرن يدخلون على الناس في ديارهم فيأخذون ما يجدون فيها من الطعام ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم، ويأخذون أموال التجار، فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك، وكان عبيدهم يصعدون على جبل العرض، فينظرون إلى الديار التي بالمدينة فأي دار رأوا فيها دخانًا قصدوا إليها فدخلوها، وأخذوا ما بها من الطعام، وفي أيام جورهم اشتد الجوع بالمغرب، فاتخذ أهل فاس المطامير في بيوتهم وديارهم للخزن والطحن والطبيخ لئلا يسمعون دوى الرحى، كما اتخذوا غرفًا لا أدراج لها فإذا كان الليل طلع الرجل فيها بسلم هو وعياله وأولاده، ثم رفع السلم لئلا يدخل عليه فجأة[١١٩].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١- وقعة فخ: كانت هذه الوقعة عام ١٦٩هـ/ ٧٨٥م عندما خرج العلويون من مكة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن ضد الخليفة العباسى الهادى، حيث بايع العلويون له بالخلافة فى المدينة، ثم سار إلى مكة، فالتقى مع الجيش العباسى بقيادة سليمان بن المنصور بفخ، وهو وادى فى طريق مكة يبعد عنها حوالى ثلاثة أميال، فانهزم العلويون وكان قد اشترك فى القتال مع الحسين عماه إدريس بن عبد الله بن الحسين، ويحيى اللذان نجحا فى الإفلات، واتجه إدريس إلى بلاد المغرب، فى حين فر يحيى إلى بلاد المشرق. عن أحداث وقعة فخ. انظر الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩، جـ٨ ص١٩٢ - ٢٠٤.

٢- أوليلى: تقع غرب مدينة فاس بطرف جبل زرهون، وهى مدينة قديمة، انظر: البكرى: المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشر دى سلان، الجزائر، ١٩١١، ص١١٨، الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د/ إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص٦٠٩ - ٦١٠. ويرى الأستاذ ليفى بروفنسال أن كلمة وليلى تقرب جدًا من الاسم اللاتينى Volubillis إلا أنه يجب تفضيل كلمة وليلة المكتوبة على جميع العملة المضروبة فى هذه المنطقة، أنظر الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة د/ السيد عبد العزيز سالم، محمد صلاح الدين، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، بدون تاريخ، ص٧ حاشية.

٣- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ، جـ٤ ص١٢، لسان الدين بن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثالث (تاريخ المغرب فى العصر الوسيط) تحقيق د/ أحمد مختار العبادى، ومحمد إبراهيم الكتانى، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٦٤، ص١٩١.

٤- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧ ص٢٥، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، بدون تاريخ، ص٣٨٤.

٥- مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فارس، مخطوط بدار الكتب المصرية، ميكروفيلم رقم ١٠٨٨، ورقة ١٩، البكرى: المصدر السابق ص١٢٢، وقد اختلفت آراء المؤرخين فى وفاة إدريس بن عبد الله، فنجد ابن الأبار يجعلها فى سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م، انظر الحلة السيراء، تحقيق دكتور/ حسين مؤنس القاهرة، دار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعارف ١٩٨٥، جـ١، ص٥٥. ويجعلها ابن القاضى المكناسى فى شهر ربيع الأول عام ١٧٦هـ/ ٧٩٢م أو سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣م. انظر: جذوة الاقتباس فيمن حل من الإعلام مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٣م، جـ١ ص٢٣، فى حين ينقل محمد جعفر الكتانى عن كتاب الأنوار الجلية أن وفاة الإمام إدريس بن عبد الله كانت أول ربيع الآخر عام ١٧٧هـ/ ٧٩٣م، انظر الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر الخطب، وتاريخ مدينة فاس، فاس، المطبعة الحجرية، ١٣١٤هـ، ص٣٧.

٦- مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ١٩ - ٢٠، مجهول: جمع تواريخ فاس طبع بمدينة بالروم، مطابع برنارد وبرزى، بدون تاريخ، ص٣، وتذكر بعض المصادر أن بيعة الإمام إدريس\بن إدريس كانت يوم الجمعة غرة ربيع الأول عام ١٨٨هـ/ ٨٠٤م. انظر على بن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٢، ص٢٧، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤ ص١٣.

٧- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٢٩، الجزنائى: جنى زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، ١٩٦٧ ص١٨، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤ ص١٣.

٨- مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٢١ - ٢٢، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٢٩، السيوطى، كتاب فى نسب بعض الصحابة والأشراف الإدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونه والموحدين، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، رقم ٥٥١، ورقة ٢٩.

٩- إسماعيل العربى: دولة الأدارسة، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٣، ص٧٧ - ٧٨، انظر كذلك:

Henriterrasse: Histoire du Maroc des Origines a l' etablissement du protectorat francais, casablanea 1949. P. 116.

١٠- من المفيد أن نعرض لآراء المؤرخين الذين بحثوا فى أصل تسمية فاس، فيرى بعضهم أن الإمام إدريس بن إدريس لما شرع فى بنائها كان يعمل فيها بيديه مع الصناع والفعلة، فصنع له بعض خدمته فأسًا من ذهب وفضة، فكان إدريس يعمل بها، فسميت فاس لأجل ذلك. ويقال أنه عندما شرع فى البناء وجد فى الحفير فأسًا كبيرًا، فسميت به المدينة. انظر، مخطوط رسالة فى ذكر من أسس فاس،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورق ٣٠ - ٣١، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٥، الجزنائي: المصدر السابق، ص٢٣.

وقيل إن الإمام إدريس لما شرع في البناء، قيل له كيف تسميها؟ قال سموها باسم أول رجل يطلع عليكم، فمر بهم رجل فسألوه عن اسمه وكان الشخ قال: اسمي فارس، فأسقط الراء من اسمه لأجل اللثغة، فقال الإمام إدريس سموها كما نطق: فقالوا فاس، وقيل غير ذلك، انظر الأنيس المطرب، ص٤٥.

وتذكرت بعض الروايات أنه قيل للإمام إدريس كيف تسميها، فقال نسميها باسم مدينة "ساف" التي كانت قبلها في موضعها الذي أخبرني به الراهب، ولكن أقلبوا اسمها، فقلبوه فأتى منه فاس، فسميت بذلك. ويرجع ابن أبي زرع هذا الرأي بقوله هذا أصح ما يكون في تسميتها، انظر رسالة في ذكر من أسس فاس ورقة ٣١، الأنيس المطرب، ص٤٥، جنى زهرة الآس، ص٢٤.

ويتضح فيما سبق عرضه إدخال الأسطورة والخيال على أسباب التسمية، ويظهر هذا من خلال قولهم يقال وقيل.

كذلك تضاربت آراء المؤرخين المحدثين أيضًا في تفسير كلمة فاس، وعللوها بتعليلات متنوعة، فذهب عبد الله العمراني مع أحد الباحثين الأسبان إلى أن كلمة فات Phut وكلمة لوبيم Lubim الواردتين في التوراة، ما هما في الواقع إلا كلمتا "فاس" و "ليبيا" ويتساءل العمراني هل نستخلص من ذلك أن اسم المدينة غير مشتق من شئ، وأن المدينة عريقة في القدم. انظر عبد الله العمراني: فاس وجامعتها، مجلة البحث العلمي، العدد الثامن، سنة ١٩٦٦ ص١٧٨. في حين ذهب محمد الفاسي أن فاس أصلها لفظة "أسيف" التي معناها النهر وتجمع على "أسافين" ومنه "ساف" التي قبلت وأعطت فاس.

انظر، محمد الفاسي: أصول الإعلام الجغرافية، مجلة البينة، العدد الأول، السنة الأولى ١٩٦٢، ص٥٢.

١١- زالغ: جبل يطل على فاس من الجهة الشمالية، حيث يَبدأ من نهر سبو في اتجاه الشرق، انظر ليون الأفريقي: وصف أفريقيا، ترجمة د/ عبد الرحمن حميدة، الرياض ١٩٧٨ - ١٧٩٧م، ص٢٩٤.

١٢- سبو: من أشهر أنهار بلاد المغرب، يمر على مدينة فاس، انظر الزهري: كتاب الجغرافيا: تحقيق محمد الحاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية بدون تاريخ، ص١٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٣- مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٢٢، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٢٩ - ٣٠، الجزنائى: المصدر السابق، ص١٨.

14- Terrasse: Op. Cit, tome I, p; 117.

١٥- حمة خولان: الحمة هى كل عين فيها ماء حار ينبع منها ويستشفى به، وحمة خولان هى الحمة التى تعرف بسيدى حرازم، تقع على بعد ١٥ كم إلى الجنوب الشرقى من مدينة فاس، تنبع منها مياه غنية بالغاز الكربونى تبلغ حرارتها ٣٥ درجة، انظر عبد الوهاب بن منصور، فى تحقيقه لجنى زهرة الأس، ص٣٦.

١٦- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٣٠، الجزنائى: المصدر السابق، ص١٨، السلاوى: الاستقصاء فى أخبار المغرب الأقصى، القاهرة، ١٩٥٠، جـ١ ص٧٢ - ٧٣، Terrasse: Op. Cit, Tome I, p. 117.

١٧- مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٢٢ - ٢٣، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٣٠ - ٣١، الجزنائى: المصدر السابق، ص١٨ - ١٩، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص٧٢ - ٧٣.

١٨- إبراهيم بركات: المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار السلمى للنشر، ١٩٦٠، جـ١ ص١٢٦.

١٩- محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، الكويت، عالم المعرفة، عدد ١٣، ١٩٨٨، ص١١٣.

٢٠- مجهول: ذكر الملوك الأدارسة، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٠٥٥ تاريخ، ورقة ٢، البكرى: المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١١٥، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٣٨.

٢١- الأخبية والقباب: الأخبية نوع من الأبنية (هى البيوت) والخباء: ما يعمل من صوف أو وبر، وقد يكون من شعر، ويكون على عمودين أو ثلاث وما فوق ذلك. أما القباب: فمن قبأ الطعام أى جمع أكله، ومن الشراب امتلأ، والقباة حشيشة ترعى. انظر الفيروز أبادى، القاموس المحيط، ص٦١.

٢٢- جراوة: قبيلة زناتية شهيرة لم يبق لها اليوم وجود بهذا الاسم، ولكن الأراضى التى كانت تسكن بها عند مجئ الإمام إدريس إلى فاس ما زالت تعرف بها. انظر عبد الوهاب بن منصور فى تحقيقه لجنى زهرة الأس، ص١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٣-مجهول: ذكر الملوك الأدارسة، ورقة ٢، مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٣٢ – ٣٣. البكرى: المصدر السابق، ص١١٥، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٣٨، الجزنائى: المصدر السابق، ص١٩.

٢٤- مجهول: ذكر الملوك الأدارسة، ورقة ٣، مجهول: قصة البلديين من أهل فاس، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، رقم ١٨٩٣ تاريخ، ورق ٤٦٧، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٣٩، الجزنائى: المصدر السابق، ص٢٦.

٢٥- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية: منشأة المعارف بدون تاريخ، جـ٢ ص٤٤٨.

٢٦- مجهول: ذكر الملوك الأدارسة، ورق ٣، ابن أبى زرع: المصدر السابق ص٣٩.

٢٧- سعد زغلول: المرجع السابق، جـ٢، ص٤٤٩.

٢٨- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٤٥ – ٤٦، ابن القاضى المكناسى: جذوة الاقتباس، جـ! ص٣٧.

٢٩- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٤٧، ابن القاضى المكناسى: المصدر السابق، جـ١ ص٣٨.

٣٠- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٤٦، ابن القاضى المكناسى: المصدر السابق، جـ١، ص٣٧، سعد زغلول: المرجع السابق، جـ٢ ص٤٤٩.

٣١- سعد زغلول: المرجع السابق، جـ٢، ص٤٥٢.

٣٢- ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس، ص٣٩، سعد زغلول: المرجع السابق، جـ٢ ص٤٥٣.

٣٣- مجهول: قصة البلديين، ورقة ٤٦٧، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٤٦.

٣٤- ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص٤٦.

٣٥- ليفى بروفنسال: المرجع السابق، ص٤٠.

٣٦- القيسارية: يتفق معظم الباحثين على أن مدلول كلمة القيسارية تعنى السوق المعمارية فى المدينة الإسلامية، ترجع إلى الأصل اللاتينى Caesarea بمعنى "السوق الامبراطورى أو القيصرى" التى تقيمها الدولة، ويكون خاضعًا لإدارتها بخلاف الفندق الذى يقيمه الأفراد وتؤول ملكيته إليهم، فى حين يفسرها بعض الدارسين بأنها "سوق التجار" ويرى بعض الباحثين أنها اشتقاق من كلمة القصر العربية، والقيسارية مؤسسة تجارية عامة متسعة النطاق، تختلف نوعًا ما من مدينة إلى أخرى، وتتكون فى بعض الأحيان من فناء مركزى فسيح تحيط به أروقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسقوفة تقام فيها الحوانيت والمصانع الصغيرة، والمخازن ومنازل الغرباء من التجار، وأحيانًا تتخذ شكل شارع مسقوف بقبوات من الأجر أو بمعروشات العنب أو بأسقف الخشب أو يترك مكشوفًا، وتتوزع على جانبيه حوانيت الباعة .. وقد تكون ساحة في وسط المدينة تتوزع حولها المنشآت التجارية. انظر دكتور/ أحمد محمد الطوخي: القيساريات الإسلامية في مصر والمغرب والأندلس، فصله من مجلة كلية الآداب، جامعة إسكندرية، العدد ٢٨، عام ١٩٨١، ص٦٧ – ٦٩. وما أشار إليه من مصادر.

٣٧– مجهول: ذكر الملوك الأدارسة، ورقة ٢، مجهول: رسالة في ذكر من أسس فاس ورقة ٣٢ – ٣٣، البكري: المصدر السابق، ص١١٥، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٣٨.

٣٨– مجهول: قصة البلديين، ورقة ٤٦٧ – ٤٦٨.

٣٩– ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٣٨ – ٤٠، الجزنائي: المصدر السابق ص٢٥ ابن القاضي المكناسي: المصدر السابق، جـ١ ص٣٢، وعين علون: عين شهيرة بفاس أسفل عقبة الشرايين وإليها ينسب الشارع الممتد منها إلى العطارين، وذكر المؤرخون أنها كانت عينًا تحيط بها الأشجار البرية، وكان الناس قبل بناء المدينة يتحاشونها بسبب وجود عبد أسود اسمه علون يقطع الطريق بها، فلما انتهى إلى الإمام إدريس خبر علون هذا أمر بالقبض عليه، وقام بصلبه على شجرة كانت على رأس العين، فسميت العين باسمه منذ ذلك الحين. انظر الجزنائي: جنى زهرة الأس ص٢٥، ص١١٢ – ١١٣.

٤٠– ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٤٢.

٤١– فنان عبد القادر: أسوار مدينة فاس، أصالة أم حاجز، مجلة كلية الآداب بفاس العدد الخاص، سنة ١٩٨٥، ص٨٨.

٤٢– مجهول: رسالة في ذكر من أسس فاس، وورقة ٣٢، ابن ابي زرع: المصدر السابق ص٤٠ – ٤١، ويجعل البكري لعدوة الأندلس ستة أبواب ولكن مع اختلاف مسمى تلك الأبواب، انظر المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، ص١١٦، في حين يجعلهم ابن القاضي في جذوة الاقتباس خمسة أبواب، ذاكرًا الأبواب الأنفة الذكر عدا باب المخيفة، انظر جـ١ ص٣٤ – ٣٥.

٤٣– الأنيس المطرب، ص٣٩ – ٤٠، جذوة الاقتباس، جـ١ ص٣٣. ويرى الأستاذ ليفي بروفنسال في مقاله الذي عقده للملاحظات على أسماء الأبواب وجعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنوانه ملاحظات على أسماء المواقع الأسبانية والمغربية. أنه ليس من الضرورى أن يكون هناك اسم واحد لأحد أبواب أى مدينة، إذ ربما تعدد اسم باب من الأبواب التى أقيمت على حين يطلق عليه أسماء عدة فى وقت واحد، فالباب الواحد يمكن أن يكون له اسم رسمى واسم شعبى فى وقت واحد. انظر: الإسلام فى المغرب والأندلس، ص٥٦.

٤٤- فنان عبد القادر: المرجع السابق، ص٨٩.

٤٥- سلجماسة: مدينة بالمغرب الأقصى فى أول الصحراء بنيت عام ١٤٠م، بينها وبين فاس ثلاثة عشر مرحلة، وهى مدينة سهلية مبنية على نهرين، حولها أرباض كثيرة، تشتهر بكثرة الفواكه ويربطها طريق تجارى ببلاد السودان وغانة. انظر البكرى: المصدر السابق، ص١٤٨ – ١٤٩.

٤٦- غمارة والريف: نسبة إلى جبل غمارة المعروف فى شمال المغرب الأقصى، وغمارة شعب من البربر البرانس سموا باسم والدهم غمارة بن مصمودة، وتزعم العامة أنهم عرب غمروا فى الجبال فسموا غمار. انظر ابن خلدون: تاريخ بن خلدون جـ٦ ص٢١.

٤٧- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص١٥، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٤٠، ابن القاضى المكناسى: المصدر السابق، جـ١ ص٣٤. أما تلمسان فهى قاعدة بلاد المغرب الأوسط، وهى مدينة عظيمة قديمة فيها آثار الأول بينها وبين وهران مرحلتان، وكانت تلمسان دار مملكة زناته، ويقطن حولها كثير من قبائل البربر، وهى كثيرة الخصب والرخاء، يقصدها كثير من التجار ومنها يسافرون إلى مدينة سجلماسة وبين فاس وتلمسان مسيرة ثمانية أيام. انظر البكرى: المصدر السابق، ص٧٦ – ٧٧، الزهرى، كتاب الجغرافيا، ص٥١، الحميرى: الروض المعطار، ص١٣٥ – ١٣٦.

٤٨- مجهول: ذكر الملوك الأدارسة، ورقة ٢، مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٣٢ – ٣٣، البكرى: المصدر السابق، ص١١٥، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٣٨، الجزنائى: المصدر السابق، ص٢٤ – ٢٥، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: جـ٤ ص٢١٣.

Terrasse: Histoire du Maroc, Tome, I p. 117.

٤٩- ليفى بروفنسال: المرجع السابق، ص٢٧، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، ص٤٠٦ – ٤٠٧، إسماعيل العربى، دولة الأدارسة، ص٨٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥٠- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، جـ٢، ص٤٥٠.

٥١- ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص٢٩ - ٣٠، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٤١٥.

٥٢- ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص١٥ - ١٩، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٤٠٧، سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، جـ٢، ص٤٥٠ - ٤٥١.

53- Terrasse: Op. Cit, Tome I, pp. 117 – 118.

٥٤- فاس قبل الحماية، ترجمة دكتور/ محمد صبحي، د/ محمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦، جـ١ ص٦٢.

٥٥- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص٤٠٦ - ٤١٥، عبد الله العمراني في مقال له بعنوان فاس وجامعتها، مجلة البحث العلمي، العدد ٨، عام ١٩٦٦، ص١٨٦، ١٨٧.

٥٦- دولة الأدارسة، ص٩٠.

٥٧- إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص١٠٢.

٥٨- المرجع السابق، جـ٢ ص٤٥١.

٥٩- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الخاص بوصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني، نشره الأستاذ محمد المنوني، مجلة البحث العلمي، العدد الأول، سنة ١٩٦٤، ص٤١، روجيه لوطورنو: فاس في عصر بني مرين، ترجمة د/ نقولا زيادة، بيروت: مؤسسة مرتكلين للنشر، ١٩٦٧، ص١٥، وعند تقدير المسافات بين فاس وغيرها من المدن المغربية، انظر الإدريسي وصف أفريقيا الشمالية، مأخوذه من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه هنري بيربرس الجزائر، ١٩٥٧، ص٥١، ٥٣، ١١٠، الزهري: كتاب الجغرافيا، ص٥١.

٦٠- الزهري: المصدر السابق، ص١٤٠، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣، ص٤٤٩، حسان عوض، جغرافية المدن المغربية، مطبوعات المركز الجامعي، بدون تاريخ، ص٦٣.

٦١- ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص١٤١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦٢- ابن سعيد المغربي: كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط، تطوان، ١٩٥٨، ص٢٥٧، الزهري: المصدر السابق، ص١١٥، ويطلق الزهري على جبل مديونه اسم جبل غياشه، عماد الدين إسماعيل: تقويم البلدان، باريس دار الطباعة السلطانية، ١٨٥٠م، ص٦٦.

٦٣- يسرى الجوهري: شمال أفريقية، الإسكندرية، الهيئة العامة للتأليف والنشر، بدون تاريخ، ص١٨٥ - ١٨٦، ص٢٠١.

٦٤- الجزنائي: جنى زهرة الأس، ص٣٦.

٦٥- سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، جـ٢ ص٤٥٢، وانظر

Terrasse: Histoire du Maroc, Tome I, p. 118.

الذي يجعل تاريخ وصولهم عام ٨١٤م.

٦٦- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٧، ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس جـ١ ص٣٨. هذا وتذكر المصادر أن هؤلاء الأندلسيين هم سكان ربض شقنده الذين ثاروا ضد الحكم الربضي أمير الأندلس، ولما كان مصير هذه الثورة الفشل اضطر عدد كبير منهم إلى مغادرة الأندلس، حيث اتجه بعضهم إلى دولة الأدارسة التي رحبت بهم، فنزلوا فيما عرف بعدوة الأندلسيين، بينما لجأ البعض إلى الإسكندرية حيث نزلوها في أوائل عهد الخليفة العباسي المأمون، حيث أسسوا هناك إمارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية، دامت أكثر من عشر سنوات، حتى تمكن المأمون من إرسال حيث بقيادة عبد الله بن طاهر بن الحسين الذي قام بإخراجهم من الإسكندرية، فلجأوا إلى جزيرة اقريطلش. انظر د/ أحمد محمد الطوخي: مصر والأندلس، الإسكندرية، مركز الدلتا للطباعة ١٩٨٨، ص٢٠، هامش وما ورد به من مصادر.

٦٧- ليفي بروفنسال: للمرجع السابق ص٢٨، سعد زغلول: المرجع السابق، جـ٢، ص٤٥٢.

٦٨- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٥٠، الجزنائي: المصدر السابق، ص٢٦، ابن القاضي المكناسي: المصدر السابق، جـ١ ص٤٨.

٦٩- سعد زغلول: نفس المرجع، جـ٢ ص٥١١.

٧٠- سعد زغلول: نفس المرجع، جـ٢ ص٤٥٣، وتذكر بعض المصادر أن وفاة إدريس الثاني كانت بفاس عام ٢١٣هـ وهو ابن ست وثلاثين عامًا، ثم تورد هذه المصادر بعد ذلك رواية البرنسي الذي يحدد وفاة إدريس بمدينة أوليلي في جمادى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآخر سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م وعمره يومئذ ثمان وثلاثون سنة. انظر مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٤، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٥٠، ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، جـ١ ص٤١، ويرى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن رواية البرنسي هي أقرب للحقيقة من حيث التاريخ، وهي تتفق مع الرواية التي أوردها البكري. انظر البكري: المغرب، ص١١٦، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، جـ٢ ص٤٥٦.

٧١- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٥، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٥١، ٥٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٤ص١٤ - ١٥.

٧٢- مجهول: ذكر الملوك الأدارسة، ورقة ١١ - ١٢، مجهول: جمع تواريخ فاس، ص١٥، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٥٣ - ٥٤، ابن خلدون: المصدر السابق، ص١٥.

٧٣- عبد الهادي التازي: جامع القرويين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢، جـ١ ص٤٩.

٧٤- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٥، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٧٧، سعد زغلول: المرجع السابق، جـ٢ ص٤٦٧.

٧٥- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٥، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٧٧ - ٧٨ السلاوي: الاستقصا، جـ١ ص٧٨.

٧٦- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٦، ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص٧٨ - ٧٩، ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، جـ٢ ص٥٥٥، السلاوي: المرجع السابق، جـ١ ص٧٨.

٧٧- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٦، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٨٠، سعد زغلول: المرجع السابق، جـ٢ ص٤٧٨.

٧٨- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص٨٠، ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس تحقيق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، الطبعة الثالثة ١٩٦٧، ص١٠٣، Terrasse: Op. Cit, Tomel, p. 126 .

٧٩- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٧، ابن أبي زراع: المصدر السابق، ٨١ - ٨٢ ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص٢٢٦، ويجعل ابن خلدون خروج عامل الفاطميين على فاس في عام ٣١٣هـ، انظر كذلك

Terrasse: Op. Cit, Tome I, p. 126.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨٠- موسى بن أبى العافية: هو زعيم مكناسة إحدى بطون زناته، وأميرها بنواحى مليلة وتازا وتسول، استفحل أمره وعظم سلطانه وتغلب على كثير من قبائل البربر وكانت بينه وبين الأدارسة بالمغرب فتن وحروب كثيرة، وكان موسى بن أبى العافيه مرة يوالى الدولة الفاطمية بالمغرب فتن وحروب كثيرة، وكان موسى بن أبى العافية مرة يوالى الدولة الفاطمية بالمغرب، ومرة يوالى الأمويين بالأندلس، واستطاع أن يستولى على فاس وبعض أعمال المغرب، وأجلى الأدارسة عن مناطق نفوذهم حتى الجأهم إلى حصنهم بقلعة حجر النسر مما يلى مدينة البصرة. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦، ص١٣٤ - ١٣٥.

٨١- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٨، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٨٢، السلاوى: الاستقصا، جـ١ ص٨٠، عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب، الرباط، المطبعة الملكية، ١٩٦٨، جـ١ ص١٢٠.

٨٢- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٨٣.

٨٣- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٩، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٨٥، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص١٣٥، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص٨٢.

٨٤- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، ص٤١٩.

٨٥- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٨٥ - ٨٦، ابن خلدون: المصدر السابق جـ٦ ص١٣٥، السلاوى، المرجع السابق، جـ١ ص٨٢،

Terrasse: Historie du Maroc, TomeI, p. 185, L. Goluin: Le Magrib Central al' epoque Des Zirides, Paris, 1957, p. 69.

٨٦- مجهول: جمع وتواريخ فاس، ص١٠.

٨٧- ابن أبى زرع: المصدر السابق، جـ٤، ص٨٨، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص٨٥.

٨٨- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤ ص٤٦، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٤٢٠.

٨٩- مجهول: نبذ تاريخه جامعة لأخبار المغرب الأقصى فى القرون الوسطى، تحقيق ليفى بروفنسال، رباط الفتح، المطبعة الجديدة، ١٩٣٤، ص٥، ابن أبى زرع: الانيس المطرب، ص٩٠، السلاوى: المرجع السابق، جـ١، ص٨٦.

٩٠- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤، ص٤٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٩١- غالب: هو القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى من أشهر قواد الأمويين فى الأندلس كان فى غاية الحزم والنجدة والشهامة والدهاء والإقدام، وجهة الحكم المستنصر إلى المغرب لمحاربة الفاطميين عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م فانتصر على الفاطميين نهائيًا وطردهم من المغرب الأقصى. انظر ابن حيان: المقتبس فى أخبار الأندلس، تحقيق عبد الرحمن على الحجى، بيروت، دار الثقافة ١٩٨٣. ص٢١، ٦٩، ١٧٤، ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الثانية ١٩٨٠، جـ٢، ص٣٤٦، ابن القاضى: المصدر السابق، جـ٢ ص٥٠٤ - ٥٠٥.

٩٢- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص١٢، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٩٢، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص٢١٨، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٤٢١.

٩٣- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٥٦، وبلكين بن زيرى بن مناد، هو زعيم قبائل صنهاجة الذى اختاره الخليفة المعز لدين الله الفاطمى لولاية أمر أفريقية والمغرب والقيام بأمر الفاطميين بالمغرب بعد رحيلهم إلى مصر، لما له من رسوخ قدم وغناء وتشييع للفاطميين، حيث أطلق المعز لدين الله يد بلكين بن زيرى فى الجيش، والمال والأعمال. انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦ ص١٥٥.

٩٤- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٩٢، ص١٠١.

٩٥- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٠١ - ١٠٢،

Terrasse, Op. Cit, Tome I, p. 188.

٩٦- زيرى بن عطية المغراوى: كان أميرًا على بن خزر من مغراوة إحدى بطون زناته كانت محلاتهم تقع بالمغرب الأوسط، وهو الذى مهد لقبائل زناته سيطرتهم على فاس والمغرب الأقصى حيث توارث بنية الملك إلى بداية دولة المرابطين. انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧ ص٢٤، ٢٨.

٩٧- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٠٢ - ١٠٣، لسان الدين بن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثالث، ص١٥٥ - ١٥٧.

٩٨- يدوين يعلى: زعيم بنى يفرن بسلاكان قد لحق بالمغرب الأقصى بعد أن أوقع جوهر الصقلى بأبيه عام ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م حيث تفرقت جموع بنى يفرن، فأستقر بدون بمدينة سلا، وكان يدو هذا من أمراء زناته كثير الاضطراب على الأمويين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالأندلس، والمراوغة لهم بالطاعة، وكان المنصور بن أبى عامر يضرب بينه وبين فرينة زيرى ابن عطية.

انظر لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص١٦٤ – ١٦٥، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧، ص٢٠.

٩٩- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٠٤ – ١٠٥، لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص١٥٨، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧ ص٢١، السلاوى الاستقصا، جـ١ ص٩٢.

١٠٠- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٠٥ – ١٠٨، لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص١٥٨، ويجعل لسان الدين بن الخطيب دخول عبد الملك فاس عام ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧ ص٣٢ – ٣٣، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص٩٢.

١٠١- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٠٧، لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص١٥٩ – ١٦٠.

١٠٢- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٠٧ – ١٠٨.

١٠٣- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٠٨، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: جـ٧، ص٣٣ – ٣٤ ويجعل لسان الدين بن الخطيب ولاية المعز بن زيرى فى عام ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م. انظر إعلام الإعلام، القسم الثالث، ص١٦٠.

١٠٤- مجهول: نبذ تاريخية فى مفاخر البربر، ص٤٢، ويجعل وفاة المعز بن زيرى فى عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م. ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٠٨، ابن القاضى المكناسى: جذوه الاقتباس جـ١ ص٣٧٧، السلاوى: المرجع السابق جـ١ ص٩٥.

١٠٥- تذكر أغلب المصادر التاريخية أن حمامه هو ابن المعز بن زيرى بن عطية، انظر نبذ تاريخية ص٤٢، لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص١٦١، ولكن ابن أبى زرع وابن خلدون يجعلاه ابن عمه، ويفندا رواية المؤرخين، ويذكران أنها ليست صحيحة، حيث وقع اللبس بسبب الاتفاق فى الأسماء فنشأ الغلط، انظر الأنيس المطرب، ص١٠٨ – ١٠٩، تاريخ ابن خلدون، جـ٧ ص٣٥. ويعلق سنوسى إبراهيم على ذلك بقوله: إن قول ابن زرع مردود عليه لأنه كان للمعز ولدين هما حمامه ومعنصر، كما ذكر صاحب مفاخر البربر نقلاً عن ابن حيان وعبد الملك بن الوراق، وقد عاصر ابن حيان الفترة وكان أقرب للأحداث، ذلك إلى جانب أنه ليس هناك سابقة ولا لاحقة فى تاريخ الإمارات الزناتية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنوانه ملاحظات على أسماء المواقع الأسبانية والمغربية. أنه ليس من الضرورى أن يكون هناك اسم واحد لأحد أبواب أى مدينة، إذ ربما تعدد اسم باب من الأبواب التى أقيمت على حين يطلق عليه أسماء عدة فى وقت واحد، فالباب الواحد يمكن أن يكون له اسم رسمى واسم شعبى فى وقت واحد. انظر: الإسلام فى المغرب والأندلس، ص٥٦.

٤٤- فنان عبد القادر: المرجع السابق، ص٨٩.

٤٥- سلجماسة: مدينة بالمغرب الأقصى فى أول الصحراء بنيت عام ١٤٠م، بينها وبين فاس ثلاثة عشر مرحلة، وهى مدينة سهلية مبنية على نهرين، حولها أرباض كثيرة، تشتهر بكثرة الفواكه ويربطها طريق تجارى ببلاد السودان وغانة. انظر البكرى: المصدر السابق، ص١٤٨ - ١٤٩.

٤٦- غمارة والريف: نسبة إلى جبل غمارة المعروف فى شمال المغرب الأقصى، وغمارة شعب من البربر البرانس سموا باسم والدهم غمارة بن مصمودة، وتزعم العامة أنهم عرب غمروا فى الجبال فسموا غمار. انظر ابن خلدون: تاريخ بن خلدون جـ٦ ص٢١.

٤٧- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص١٥، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص٤٠، ابن القاضى المكناسى: المصدر السابق، جـ١ ص٣٤. أما تلمسان فهى قاعدة بلاد المغرب الأوسط، وهى مدينة عظيمة قديمة فيها آثار الأول بينها وبين وهران مرحلتان، وكانت تلمسان دار مملكة زناته، ويقطن حولها كثير من قبائل البربر، وهى كثيرة الخصب والرخاء، يقصدها كثير من التجار ومنها يسافرون إلى مدينة سجلماسة وبين فاس وتلمسان مسيرة ثمانية أيام. انظر البكرى: المصدر السابق، ص٧٦ - ٧٧، الزهرى، كتاب الجغرافيا، ص٥١، الحميرى: الروض المعطار، ص١٣٥ - ١٣٦.

٤٨- مجهول: ذكر الملوك الأدارسة، ورقة ٢، مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٣٢ - ٣٣، البكرى: المصدر السابق، ص١١٥، ابن أبى زرع: المصدر السابق،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انتزعها منهم موسى بن أبى العافية سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، ثم صارت عاصمة لبنى يفرن فى أواخر القرن الرابع الهجرى، وفى بداية دولة المرابطين خربت شاله بسبب الحرب بين برغواطه والمرابطين، وحاول بنو مرين تجديد بناء مدينة شالة فأداروا عليها الأسوار وبنو بها مدارس ومساجد، كما اتخذوا بها مدافن لملوكهم وأعيانهم. انظر الإدريسى: وصف أفريقيا الشمالية، عن كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ص١٧، لسان الدين بن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثالث ص١٨٤، عبد الوهاب بن منصور: فى تحقيقه لجنى زهرة الأس، ص١٣، وانظر:
Henri Basset et Lévi Provencal: Chelia, Une Nécrapole Merenide, Paris, 1922, p; 157.

١١٣- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٢٠، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١١، لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص١٦١، ابن خلدون: المصدر السابق جـ٧ ص٢١.

١١٤- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٢٠، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١١١، الجزنائى: جنى زهرة الآس، ص٤٠، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧ ص٣٥، ابن القاضى المكناسى: المصدر السابق جـ١ ص١٩٤.

١١٥- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٢٠، الجزنائى: المصدر السابق، ص٤٠ - ٤١، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧، ص٣٥، ظل الباب الذى فتحه عجيسة بعدوة القرويين على حاله حتى أيام الخليفة الموحدى الناصر بن يعقوب المنصور الذى أمر بإعادة بناء سور مدينة فاس الذى كان جده الخليفة عبد المؤمن بن على قد هدمه أثناء فتحه لمدينة فاس، وصنع فى هذا السور بابا كبيرا فوق باب عجيبة القديم، ثم أمر بتغير اسم الباب فأسقط الناس حرف العين من عجيبة، وجعلوا الألف واللام عوضا عنها فقالوا باب الجيسة. قيل أن الذى أمر بتغيير الاسم الأمير فتوح عندما ظفر بأخيه عجيسة.
انظر الجزنائى: المصدر السابق، ص١٠٥ - ١٠٦.

١١٦- ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص١١١ - ١١٢، الجزنائى: المصدر السابق، ص٤١، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧ ص٣٥، ابن القاضى المكناسى جذوة الاقتباس، جـ١ ص٤٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١٧- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٢٠، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١١٢، الجزنائى، المصدر السابق، ص٤١، ابن القاضى المكناسى: المصدر السابق، جـ١ ص١١٤.

١١٨- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١١٣ - ١١٤.

١١٩- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٢١، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١١٤. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، القاهرة، دار الفكر العربى، بدون تاريخ، ص٨٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

الحياة السياسية بمدينة فاس فى عصرى المرابطين والموحدين

(٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م إلى ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولاً: الحياة السياسية بفاس فى عصر المرابطين:

شهد المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين فترة مزدهرة حتى أصبحت بحق من أخصب فتراته فى العصر الإسلامى، حيث نشأت على أرضه أضخم دولتين عرفتهما هذه المنطقة خلال تاريخه الإسلامى، هما دولتا المرابطين والموحدين[1]. وينتمى المرابطون إلى قبائل كدالة ولمتونة وجدالة ولمطة ومسوفه، وهذه القبائل منتسبة إلى صنهاجة الجنوب الضاربة فى الصحراء[2] وقد انتهت رئاسة تلك القبائل إلى يحيى بن إبراهيم الكدالى الذى ارتحل إلى المشرق من أجل الحج فى عام ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٣٦[3]، فلما قضى حجة قفل إلى بلاده، فمر فى طريق عودته بالقيروان، حيث أتيح ليحيى سماع عالمها وفقيهها أبا عمران الفاسى[4]. وتأثر يحيى بن إبراهيم بتعاليم هذا الفقيه، فرغب أن يبعث معه من طلبته من يثق فيه قائلاً: "فينا أقوام يحرصون على تعاليم القرآن وطلب العلم، ويرغبون فى التفقه فى الدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فعسى يا سيدنا أن تنظر لنا من طلبتك من يتوجه معنا إلى بلادنا ليعلمنا ديننا"[5]. فوجد من الفقيه أبا عمران قبولاً واستجابة، حيث كتب الشيخ أبو عمران إلى وجاج بن زللو اللمطى[6] من أهل السوق الأقصى كتابًا ليرسل من طلبته من يبعثه مع يحيى ابن إبراهيم الكدالى إلى بلاد الصحراء[7].

وما إن وصل يحيى بن إبراهيم بكتابه إلى وجاج بن زللو بمدينة نفيس[8] فى عام ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م حتى انتدب له عبد الله بن ياسين الجزولى وكان موصوفًا بالعلم والخير من حذاق طلبته من أهل الدين الورع والسياسة، فخرج مع يحيى بن إبراهيم إلى بلاد الصحراء[9]. موافقًا على هذه المهمة الشاقة[10]. فتلقنهم قبائل كدالة ولمتونه وفرحوا بقدومهما، فشرع الفقيه عبد الله بن ياسين يعلمهم القرآن ويقيم لهم دروس الدين ويسوسهم بآداب الشرع، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ومشتدًا عليهم فى إقامة الحدود.[11] ولكن كان اشتداده فى تطبيق أحكام الدين وإقامة الحدود، أن استصعبت هذه القبائل عمله، وتركوا الأخذ عنه. ثم عزم ابن ياسين على الرحيل عنهم إلى جزيرة فى البحر ومعه سبعة نفر من كدالة حيث ابتنى رباطه هناك فكثر عليه الواردون، فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى اجتمع عليه من التلاميذ نحو ألف رجل[12].

واكتسب رباطه شهرة عظيمة كمركز للجهاد وللأتباع الجدد.[13] وأطلق عبد الله بن ياسين على أتباعه اسم المرابطين[14]. نسبة إلى رباطه الذى تلقوا فيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكوينهم الروحي والحربي، كما عرفوا أيضًا بالملثمين لاتخاذهم لثامًا يستر الوجه كله، فلا تبدو إلا محاجر العينين، كما عرفوا أيضًا باللمتوتيين نسبة إلى قبيلة لمتونة التي كانت تتولى الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة[١٥].

واستطاع عبد الله بن ياسين في أمد وجيز أن يؤلف جيشًا محاربًا جعل على قيادته صاحبة يحيى بن عمر، وعندئذ شرع في نشر تعاليمه بين قبائل صنهاجة، ولكن توفي يحيى بن عمر سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م فقدم مكانه أخاه أبو بكر بن عمر، حيث قلده أمر الحرب والجهاد وذلك في المحرم ٤٤٨هـ/ مارس ١٠٥٦م[١٦]. وخضعت أكثر قبائل الصحراء مثل كداله ولمتونه وجدالة ومسوفة للمرابطين، فقويت شوكتهم، واستولوا على مضارب تلك القبائل بالصحراء، وما وراءها من بلاد المصامدة والقبلة والسوس بعد حروب كثيرة[١٧].

وبعد أن تم للمرابطين بسط سيادتهم على الصحراء واطمأنوا من ناحية الجنوب بدأت جموعهم تطرق أبواب المغرب، حيث اتجهت أنظار ابن ياسين إليه ليضع حدًا للمظالم التي كانت منتشرة ببعض المدن المغربية[١٨]. فأمر عبد الله بن ياسين أتباعه بالخروج من الصحراء إلى بلاد سجلماسة ودرعه[١٩] وأهلهما يومئذ تحت طاعة أمراء مغراوة وزناته .. فغزاهم في جيش كثيف حتى غلبوا عليهم، ودخل المرابطون المدينتين[٢٠]. ثم تدفق المرابطون في موجات كاسحة إلى الواحات المغربية الواقعة بين نهر درعة الأوسط وتافيليت[٢١]. إلا أن زناتة لم تحتمل غزو صنهاجة فثارت تافيليت، وخرجت سجلماسة على المرابطين، فأعلن عبد الله ياسين الجهاد وسار لقتال زناته[٢٢]. ففتح المرابطون بجيش في مقدمته يوسف ابن تاشفين اللمتوني مدينة ماسة[٢٣] وتارودانت[٢٤]. قاعدة بلاد السوس، وبعث أبو بكر بن عمر، ابن عمه يوسف بن تاشفين إلى واحات درعة فنجح في استردادها فيما بين عامي ٤٤٨ - ٤٤٩هـ/ ١٠٥٦ - ١٠٥٧م[٢٥]. ثم اتجه المرابطون نحو أغمات[٢٦]، فدخلوا المدينة وما يليها سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، ومال المرابطون غربًا إلى إقليم تامسنا[٢٧]، لمحاربة برغواطه[٢٨]، حيث غزاهم عبد الله بن ياسين مع أبي بكر بن عمر في جمع عظيم، فقاتلهم قتالاً شديدًا، واستشهد ابن ياسين في جهادهم وذلك في عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م[٢٩].

وبعد ذلك نازل أبو بكر بن عمر مدينة لواته[٣٠] وافتتحها عام ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م غير أن هذه الفتوحات لم يكتب لها الاستمرار، فقد حدث في هذه السنة شقاق بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء، فخشي أبو بكر بن عمر أن تفترق كلمتهم،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتشتت جموعهم فرأى ضرورة التوجه إلى الصحراء ليصلح بين القبلتين ويربأ الصدع، فأستخلف ابن عمه يوسف ابن تاشفين فى قيادة جيوش المرابطين، وولاه بلاد المغرب مكانه نيابه عنه، وقسم الجيش حيث ترك له الثلث من لمتونة، وشرع هو فى التوجه إلى بلاد الصحراء[٣١].

ثم انطلق المرابطون إلى شمال الأطلس الكبير، تحت قيادة رئيسهم يوسف بن تاشفين الذي غزا المغرب الأقصى ثم المغرب الأوسط[٣٢] فكشفت قيادته للمرابطين عن عظمته[٣٣]. وأصبح يوسف بن تاشفين أميرًا على البلاد منذ عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م وكانت عزيمته قوية ونظره بعيد، فاختط مدينة مراكش[٣٤] عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م لتكون عاصمة لملكه، ثم أنشأ جيشًا كبيرًا من قبائل صنهاجة وزناتة والمصادمة وزحف بهم من مراكش لفتح ما تبقى من حواضر المغرب[٣٥]. فكان اتجاه المرابطين نحو الشمال هو الذى حدد مستقبل دولتهم، حيث فتحوا فى تاريخ المغرب على الخصوص وتاريخ العالم الإسلامى على العموم صفحة جديدة[٣٦].

محاولات المرابطين لفتح فاس:

نجح المرابطون فى القضاء على الإمارات الزناتية فى إقليم الجنوب ولم يبق أمامهم لتعلوا كلمتهم وتتم لهم الغلبة على الشعب الزناتى إلا أن يقضوا على الإمارة المسيطرة على منطقة فاس، والجهات المحيطة بها[٣٧] حيث كانت تحكم هذه المنطقة قبائل زناته وهى قبائل مذمومة سيئة السيرة على غاية من الظلم ونهاية من الجور والتعدى[٣٨]. وكانت مدينة فاس ما زال يسيطر على الفتوح بن دوناس بعد تغلبه على أخيه عجيسة[٣٩].

أدرك المرابطون أهمية هذا الإقليم الذى إذا سيطر عليه فاتح استطاع أن يسيطر على أقاليم المغرب الأقصى كلها دون عناء[٤٠]. وأعد ابن تاشفين جيشه إعدادًا حسنًا يتناسب مع أهمية الدور الذى سيقوم به فى هذه المرحلة، وقدر المرابطون خطورة اتجاههم نحو الشمال وصعوبته حيث سيواجهون خصمًا عنيدًا طالما نازعهم العداء من قبل، ذلك الخصم هو قبائل زناته بحشودها الجرارة الذين وقفوا يتربصون لذلك الحلف الذى قام فى الصحراء يريدون الإجهاز عليه، وإنهاء دعوته التى تتهدد ديارهم وملكهم[٤١]. لذلك عنى المرابطون بالجيش عناية فائقة، وأمعنوا فى تنظيمه وتسليحه[٤٢]. ففى عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م جند يوسف بن تاشفين الأجناد واستكثر القواد، واتخذ كثيرًا من الطبول، وأخرج العمال وكتب العهود، كما جعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى جيشة الاغزاز والرماة، كل ذلك إرهابًا لقبائل المغرب، فكمل له من الجيش فى تلك السنة ما يزيد عن مائة ألف فارس، فخرج بهم من مراكش قاصدًا مدينة فاس[٤٣].

كان ابن تاشفين يدرك أن مدينة فاس من المعاقل الحصينة التى يتطلب فتحها مثل هذه الأعداد الغفيرة، وبالفعل تلقته القبائل الفاسية من زواغة ولماية ولواته وصدينة وسدارته ومغيلة وبهلولة ومديونه فى خلق عظيم وعدد كثير، فكانت بينهم وبينه حرب عظيمة انهزموا فيها وانحصروا بمدينة صدينة[٤٤]. فدخل عليهم بالسيف وهدم سورها وخربها وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف رجل، وفتح استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة صدينة الطريق إلى مدينة فاس التى ارتحل إليها يوسف لأن قلوب المرابطين لم تكن لتطمئن وعدوهم جاثم بمدينة فاس، خاصة وأن الوادى الذى تقع فيه كان مركز الثقل فى المغرب الأقصى كله، كما أن من يسيطر على فاس يستطيع دون عناء إذا توفرت له القوة أن يتحكم فى السهول الشمالية كلها، لذلك قرر المرابطون التقدم صوب فاس مهما كلفهم ذلك من تضحيات[٤٥].

وهنا خيم الخوف والذعر على المغراوين بفاس حين توجه إليها يوسف بن تاشفين لحصارها[٤٦]. فخشى الفتوح بن دوناس عاقبة الأمر فرحل متخليًا عن ملك مدينة فاس لابن عمه معنصر بن حماد الذى بايعته قبائل مغراوة بفاس[٤٧]. وازداد هذا الخوف عندما تحالف صاحب مكناسة[٤٨] (مهدى بن يوسف الكزنائى) الذى كان عدوًا لمعنصر المغراوى صاحب فاس مع يوسف بن تاشفين[٤٩]. وسوف يكون لهذا التحالف أثره فى تسهيل مهمة الاستيلاء على مدينة فاس[٥٠]. ومن ثم بدأ الصراع بين يوسف بن تاشفين وبين الفرع الأكبر من زناته وهو الذى يحكم فاس. فى هذه الأثناء دب النزاع بين فاس ومكناسة، واستنجدت مكناسة بيوسف بن تاشفين، وكان أمير فاس يحارب على طريقة زناته حرب كروفر، فيفر من المرابطين ثم يعود فارًا على حين غره، وكان أمير فاس يعتمد أيضًا على حلف بينه وبين صاحب سبته وطنجة[٥١]. الحاجب سكوت البرغواطى[٥٢]. وعلى قربة من منازل مغراوية فى الريف وتازا[٥٣] ونكور[٥٤] وتلمسان[٥٥].

ويبدو أن المرابطين قد جمعوا بين نظامى الكر والفر، ونظام الزحف فى حروبهم الأولى ضد أمراء المغرب، وكان هذا نظامًا أملته عليهم طبيعة المرحلة التى ظهروا فيها وطبيعة الأرض التى يحاربون عليها[٥٦] وقد دخل المرابطون حرب فاس بأسلوب الكر والفر، واستخدم فيها يوسف ابن تاشفين طريقة جديدة فى الحرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهي أسلوب التقرى[٥٧] حيث تقرى منازلها، وفتح جميع الحصون المحيطة بها"[٥٨] وهو أسلوب طبقة ابن تاشفين على فاس وما حولها من حصون صغيرة وكبيرة، وعلى المشارف الجنوبية لجبال غمارة[٥٩]. ثم وجه إلى فاس فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها وذلك آخر سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م، ثم أقام يوسف على فاس أيامًا، فظفر بعاملها بكار بن إبراهيم، فقتله، وارتحل عنها إلى مدينة صفرو[٦٠] فدخلها عنوة[٦١]. ثم رجع ابن تاشفين بعد ذلك إلى مدينة فاس فحاصرها حتى فتحها صلحًا، وهو الفتح الأول وذلك عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٢م، وأقام يوسف أيامًا بفاس واستخلف عليها عاملاً من لمتونة وخرج هو إلى بلاد غمارة[٦٢]. وكان الفتح الأول لفاس فتحًا مشروطًا، وهو يختلف عن فتح العنوة، ففتح الصلح يتضمن قيودًا لصالح البلد المفتوح تحد من تصرفات الفاتح، بينما يخلو فتح العنوة منها[٦٣]. ورغم صمت المصادر التاريخية عن الأسباب التي دفعت بابن تاشفين لقبوله فتح فاس صلحًا، فإن هذا يجعلنا ظن أنه لقي من مقاومة الزناتيين بفاس ما أضطره إلى قبول الصلح، كما أن ابن تاشفين اكتفى بفتح الصلح كي يوجه جيوشه إلى مشارف غمارة.[٦٤]

وبالرغم من انعقاد هذا الصلح فإن فاس لم تستسلم ليوسف بن تاشفين الاستسلام النهائي.[٦٥] حيث استغل تميم بن معنصر - بعد مهلك معنصر المغراوى - خروج يوسف بن تاشفين إلى بلاد غماره وبعده عن فاس، فدخل تميم المدينة، وقتل عامل يوسف الذى كان بها، ومثل بالمرابطين حرقًا وصلبًا، وثارت زناته بفاس ضد المرابطين فأزعجوهم، وتولى أمر المدينة تميم بن معنصر في عام ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م[٦٦]. وهكذا تمكن تميم من استرداد فاس، وطرد أعداءه ملحقًا أول هزيمة بيوسف بن تاشفين[٦٧]. ولم يكن في إمكان يوسف بن تاشفين أن يعود إلى فاس، وهو لم يثبت أقدامه بعد في جهات غمارة[٦٨].

وعلى أثر سقوط فاس طلب يوسف من حليفه "مهدى الكزنائى" أن يتجهز لقتال مغراوة، فخرج مهدى من مكناسة واتجه نحو فاس، وخاف تميم بن معنصر أن يتقوى المرابطون عليه إذا وصل حليفهم الكزنائى، فتقدم في أجناد مغراوة وقبائل زناته نحو مكناسة قاصدًا صاحبها الكزنائى، حيث لحق به في بعض الطريق، فكان بينهما قتال شديد تمكن فيه تميم من هزيمة الكزنائى، وفض جموعه، وقتله وبعث برأسه إلى الحاجب سكوت البرغواطى[٦٩].

وهكذا أصبحت مدن المغرب الشمالية في قبضة تميم، ونال ما أراده من عدوة الكزنائى ثم أخذ تميم يعمل على تطهير فاس من كل من يشتم منه الميل إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرابطين[٧٠]. وعندئذ بعث أهل مكناسة إلى يوسف بن تاشفين يستصرخونه ويستغيثون به ضد صاحب فاس، واعطوه بلادهم، وبذلوا له الطاعة، ولم تطل فرحة تميم بالنصر، فقد تدارك المرابطون الأمر في سرعة وثبات، فلم يكد تميم بن معنصر يستقل بأمره حتى وجه ابن تاشفين عساكرة لحصار فاس التي قامت بحصار المدينة وتضييق الخناق عليها، وقطع الموارد عنها، فلما رأى صاحب فاس أن الأمر قد اشتد عليه وانقطعت عنه المواد والموارد، وعدمت الأقوات بفاس، جمع جيشًا عظيما من مغراوة وبني يفرن وخرج إلى قتال المرابطين، ولكنه يبدو أن حصار المرابطين للمدينة قد أتى ثماره، فكانت الهزيمة على تميم حيث قُتل وقُتل معه خلق كثير[٧١]. ودخل ابن تاشفين مدينة فاس هذه المرة عنوة فقتل بها من زناته ما يزيد عن عشرين ألفًا وذلك عام ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م[٧٢].

وكان على قبائل زناته بفاس أن تعمل على صد الخطر المرابطي وفعلاً التفت زناته حول بيت زناتي أخر كانت له الرئاسة قبل بيت زيرى هو بيت موسى ابن أبي العافية[٧٣]. حيث اجتمعت زناته بعد مقتل تميم على القاسم بن محمد بن عبد الرحمن من ولد موسى بن أبي العافية، الذين كانوا ملوكًا بتازا وتسول[٧٤]، وزحفوا إلى عساكر المرابطين حيث التقوا معهم في وادي سيمر[٧٥]، فكان بينهم قتال شديد انهزم فيه المرابطون، وقتل جماعة من فرسانهم، وفي هذه الأثناء كان يوسف بن تاشفين يحاصر قلعة فازاز[٧٦] حيث وصلته أنباء خبر هزيمة المرابطين، فأرتحل عن القلعة تاركًا جيشًا من المرابطين محاصرًا لها[٧٧]. وهكذا نجحت زناته في حربها ضد المرابطين هذه المرة، كما نجحت في المرة الأولى، بل انتصر جيش القاسم بن أبي العافية على جيش المرابطين، الذين أصبح موقفهم في غاية الصعوبة، وكادت تضيع جميع جهودهم التي بذلت في فتح فاس، كما خشوا أن تنتشر أخبار تلك الهزائم، وتتآلب القبائل التي حالفت المرابطين، فأضطر قائدهم أن يعود مرة أخرى إلى مدينة فاس، ليعمل على معالجة الأمور بسرعة، خاصة وأنها الهزيمة الثانية التي تصيب المرابطين في مواجهة عسكرية مع قبائل زناته بفاس[٧٨].

ويبدو أن يوسف بن تاشفين اختص نفسه بمنطقة فاس وما جاورها لأنها قلب المقاومة ومركز ذلك الصراع.[٧٩] فتقدم جيش المرابطين نحو فاس، وفي هذه المرة لجأ ابن تاشفين إلى أسلوب التقرى التماسًا لفرصة من زعيم بني مراسن وفتح بلادهم وسار إلى بلاد فندلاوة وورغة فغزاهما، وفتح جميع تلك الجهات[٨٠]. وبذلك أحاط ابن تاشفين بمدينة فاس إحاطة السوار بالمعصم، عازلاً لها عن الجهات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجاورة[٨١] غير أن القاسم بن أبى العافية لم يمكنه من نفسه، وفضل الانتظار لفرصة إن أمكن، ولكن لم يقدر لزناته أن تعود مرة أخرى إلى الكر، وظل ابن تاشفين متمسكًا بأسلوب التقرى تمهيدًا للدخول فى مرحلة رئيسية للاستيلاء على المدينة[٨٢].

وبعد أن تم ليوسف فتح البلاد المحيطة بفاس، زحف على المدينة بجميع جيوشه وشدد عليها الحصار، حتى دخلها عنوة بالسيف، فقتل بها من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة، وقبائل زناته خلقًا كثيرًا حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وأعوزت مدافنهم فرادى، فأتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات فقتل منهم بجامعى القرويين والأندلسيين ما يزيد على ثلاثة آلاف رجل، وفر من بقى منهم إلى أحواز تلمسان، وهو الفتح الثالث لفاس، وكان دخول يوسف بن تاشفين إياها فى يوم الخميس جمادى الأخرى عام ٤٦٢هـ/ ١٨ مارس ١٠٧٠م[٨٣] ويجعل ابن عذارى ذلك عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م[٨٤]، ولكن هذا تاريخ عما تذكره المصادر الأخرى.

هكذا فوجئت قبائل زناته بيوسف بن تاشفين، ولم يستطع الزناتيون بفاس قتال ابن تاشفين، بل تخلوا عن البلاد، وانسحبوا مع أميرهم آملين فى الحصول على نجده، ولكن يوسف بن تاشفين انتقم من الهزائم السابقة التى حلت به من الزناتيين دون أن يجد أية مقاومة. ويبدو أن سكان فاس أمام هذا القتل فقدوا أى أمل من الزناتيين، فبدلاً من مساعدتهم قاموا بمطاردتهم وكأنهم رعايا ثائرون عليهم ثم التقوا بهم على وادى أبى رقراق بأمتعتهم وعائلاتهم مجهدين يكادون يموتون من الجوع، فأثخنوا فيهم ولم يفلت من أيديهم إلا من غرق أو قفز إلى أسفل الصخور، فتلك هى الصورة التى هلكت بها قبائل زناته[٨٥]. ويتضح لنا من خلال هذا مدى انحياز أهل فاس إلى قوات ابن تاشفين بعد أن تملكهم اليأس من نصرة الزناتيين، وهكذا شهدت مدينة فاس صراعًا مريرًا ومعارك مستمرة قرابة الثمان سنوات، إلى أن استولى المرابطون عليها.

وبسقوط فاس فى يد المرابطين تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات ذلك الصراع العنيف الذى احتدم بين زناته وبين صنهاجة الجنوب، وقد تفرق شمل زناته ولم تعد لها بالمغرب الأقصى قوة تذكر .. وكان لاستيلاء المرابطين على فاس أهمية بالغة الأثر، فقد فتح الطريق أماهم ليتموا فتح المغرب الأقصى كله، ويستولوا على السهول الساحلية، كما أنه يمثل بدء احتكاك المرابطين بالحضارة المغربية الأندلسية التى كانت مزدخرة بفاس وبالسهول الساحلية من إقليم الريف[٨٦].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- توحيد فاس وتنظيما فى عهد المرابطين:

لم تكن مدينة فاس عاصمة للمرابطين، ولكن كانت إحدى مدنهم الرئيسية فهى وإن كانت مدينة لإدريس الثانى بنشأتها الأولى، فأن يوسف بن تاشفين هو مؤسسها الثانى، حيث اهتم ابن تاشفين بمدينة فاس على الرغم من اتخاذه مدينة مراكش عاصمة لدولته.[٨٧] فلم يكد يستقر بفاس حتى أدرك الوضعية المتناقضة للمدينتين المتلاحقتين[٨٨]. تلك الوضعية التى كانت تشعر سكان العدوتين بضيقهما، ولا شك أن يوسف بن تاشفين استجاب لهذا الإحساس[٨٩]. فأمر بهدم الأسوار التى كانت تفصل بين القرويين والأندلسيين من عدوتها، وربطهما بعدة قناطر، وصيرهما مدينة واحدة[٩٠].

ولا شك أن هذا القرار كان صائبًا ... لكنه لم يستطع أن يقضى على الخلافات القائمة بين المدينتين دفعة واحدة، وما زلنا نذكر أن سكان المدينتين كانوا من عناصر مختلفة .. فكان توحيد المدينة يواجه مصالح معنوية ومادية، لا يمكن أن يوقفها عند حدها أقل من يوسف بن تاشفين.[٩١] الذى "أقر العامة بها، ونفى البربر والجند بعد أن حبس بعضهم وقتل بعضهم فعند ذلك قوى شأنه وتمكن بالمغرب الأقصى والأدنى سلطانه"[٩٢]. فى نفس الوقت قام يوسف بن تاشفين بإدارة الأسوار على مدينة فاس، جاعلها سورًا واحدًا، وأصلح أسوارها[٩٣] والتى نعتقد أنها تهدمت فى فترة الاضطرابات السياسية التى شهدتها فاس قبيل دخول المرابطين، وأثناء محاولاتهم للاستيلاء على المدينة. حيث أصلح ابن تاشفين السور الذى بأعلى الوادى الكبير بقرب حوض السفرجل، والسور الذى أسفله حيث هى الرميلة الذى كان بناءه دوناس حين أدار الأسوار على سائر أرباض المدينة[٩٤]. ولا شك أن ابن تاشفين أراد من ذلك أن يتخذ صيغة الجدار الدفاعى، والتحصين العسكرى خوفًا من مباغتات زناتيه مفاجئة.

وعمل يوسف بن تاشفين على تحويل فاس إلى قاعدة عسكرية، إذ كانت إلى ذلك الحين - على ما يبدو - لا تحتوى سوى حاميات متواضعة. فأصبحت فاس مع ابن تاشفين القاعدة الرئيسية لعمليات المرابطين، سواء تعلق الأمر بالزحف إلى الشرق نحو تازا وملوية[٩٥] وتلمسان وحتى الجزائر أو أراد يوسف إخضاع قبائل الريف وجباله، أو ذهب بعد قليل لفتح بلاد الأندلس، فكان يتخذ فاسًا دائمًا قاعدة أساسية لغزواته[٩٦]. لأن المرابطين على حد قول هوبكنز قد اهتموا بالشؤون العسكرية أكثر من اهتمامهم بالشؤون المدنية[٩٧]. لهذا الغرض بنى القصبة التى يمكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التعرف عليها بالحى الذى ما زال يسمى "بوجلود" أو القصبة القديمة.[٩٨] التى تقع فى غرب المدينة، فى مكان مرتفع، مفصولة تمامًا عن باقى المدينة لكنها تشرف عليها إشرافًا مباشرًا، وعلى ما يبدو أن مساحة هذه القصبة كانت كبيرة، حيث وُصفت بأنها تكاد تكون مساحة مدنية[٩٩]. وكانت هذه القصبة مقر سكان حكام مدينة فاس وأمرائها خلال عصرى المرابطين والموحدين. حيث احتوت على كثير من القصور التى كان يسكنها الحكام والأمراء، كما احتوت على الأبنية الأخرى التى كانت تسكنها بعض أسرهم وضمت سجنًا شيد على شكل كهف[١٠٠].

إلى جانب ذلك أسس ابن تاشفين بمدينة فاس "القلعة" داخل أسوار المدينة، وفى وسطها، وقلعة المرابطين هذه كانت فى أعلى الحى الذى يسمى "القطانيين" كما يوجد السجن الذى كان يسمى بسجن القلعة، مضافًا إليهما البرج الذى كان من توابع القلعة المرابطية.[١٠١]

كما اهتم ابن تاشفين ببناء المساجد فى فارس، مؤكدًا على زيادتها حاملاً أهل فاس على الاستكثار منها[١٠٢]. وبذلك حقق ابن تاشفين عملاً سياسيًا ودينيًا، فالمرابطون لم يخرجوا من الصحراء للفتوح والغنائم فقط، إنما كانوا يتزعمون إسلامًا مستمدًا من ينابيع المذهب المالكى.[١٠٣] لهذا اتجه ابن تاشفين منذ اللحظة التى دخل فيها فاس إلى بناء المساجد، لأن الدين يدعو إلى الاهتمام بإنشائها. وتطلبت عملية الإنشاء أن يقيم ابن تاشفين بفاس منذ فتحها فى جمادى الأخرة عام ٤٦٢هـ/ مارس ١٠٧٠م إلى شهر صفر من عام ٤٦٣هـ/ نوفمبر ١٠٧٠م[١٠٤]. وبهذا ندرك أن العاهل المرابطى الأول كان أحد الرواد الكبار لتنمية فاس سياسيًا.

هذا ولقد شهد المغرب الأقصى تقسيمًا إداريًا لأقاليمه منذ بداية دولة المرابطين، ففى عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م قسم ابن تاشفين المغرب إلى أعمال ووزعها على بنيه وأمرائه وقومه وذويه، فولى عمر بن سليمان على مدينة فاس وأحوازها[١٠٥]. وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يعين هؤلاء الأمراء لفترات محدودة، ويضعهم تحت الاختبار، حتى إذا ظهرت صلاحيتهم ورضى عنهم العامة ثبتهم فى مراكزهم، ومنحهم سلطة الأمير كاملة غير منقوصة[١٠٦]. هذا وكان نائب أمير المسلمين فى إقليم مراكش الساحلية يتخذ مدينة فاس قاعدة لحكومته ويسمى سلطان المغرب[١٠٧].

وأدرك ابن تاشفين أهمية استقطاب أهل فاس فى عبوره للعمليات العسكرية بالأندلس، فعندما تواترت عليه الكتب بالاستصراخ لنصرة المسلمين هناك، قدم إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينة فاس عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م ناظرًا فى أمر الجهاد مستنفرًا له قبائل المغرب، ثم خرج من فاس إلى سبته ليعبر منها إلى الأندلس، فلحقت به العساكر والجنود[١٠٨].

الفتن والاضطرابات فى فاس فى عصر المرابطين:

فى حوالى ٤٧٨هـ/ ١٠٩٤م عاشت طائفة من أهل فاس فسادًا وطغيانًا فى المدينة، وقاموا باحراق منازلها، وتطور الأمر إلى حد تلقب أحدهم بالإمارة. وتدارك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين خطورة هذه الحركة، فعمل على إخمادها، ولما نجح فى هذا الأمر أبعد القائمين عليها عن مدينة فاس، وقام بوضعهم فى سجن أغمات[١٠٩]. ويبدو أن هذه الحركة كانت تضم عناصر مختلفة بينهم طائفة من الشعراء، الذين وضعوا فى السجن مع المعتمد بن عباد[١١٠]. فكان المعتمد يتسلى بمجالستهم ومؤانستهم ويستريح إليهم، ويبوح لهم بسره ونجواه. وبعد أن هدأت الأمور بمدينة فاس بعد القضاء على هذه الحركة، أطلق أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سراح السجناء فأنطلقوا من وثاقهم[١١١].

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين فى المحرم سنة ٥٠٠هـ/ سبتمبر ١١٠٦م، كتب ابنه على بن يوسف إلى جميع بلاد المغرب والأندلس يعلمهم بموت أبيه، واستخلافه من بعده، ويأمرهم بالبيعة[١١٢] فأتته البيعة من جميع البلاد، وأقبلت نحوه الوفود من جميع مدن المغرب والأندلس للتعزية والتهنئة، إلا مدينة فاس، فإن ابن أخيه يحيى بن إبراهيم بن أبى بكر بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كان أميرًا عليها من قبل جده يوسف، فلما وصله الخبر بموت جده، وولاية عمه عظم ذلك عليه، وأنف من بيعته[١١٣]. وأبى الاعتراف بسلطان على بن يوسف[١١٤].

وتكمن أسباب عدم الاعتراف فى حقد يحيى بن أبى بكر، على على بن يوسف لتوليه الإمارة بعد وفاة أبيه يوسف بن تاشفين[١١٥]. حيث صار يحيى بن أبى بكر يصرح بأنه خير من على بن يوسف، وأحق بالأمر منه، ممتنعًا عن بيعته، معلنًا عصيانه وتمرده، وخروجه عن طاعة عمه، محاولاً أن يستقل بمدينة فاس استقلالاً تامًا[١١٦].

وبذلك قامت فى مدينة فاس العاصمة الدينية للمغرب ثورة محلية محدودة، ولكنها كانت فى الحقيقة أول مظاهر التصدع الذى أصاب دولة المرابطين، حيث وافق الأمير يحيى بن أبى بكر فى ثورته جماعة من قواد لمتونة[١١٧]. وهنا اضطر على بن يوسف أن يعجل بالقضاء على هذه الثورة وتأديب ابن أخيه، فبادر بالتحرك فى قوة من عسكره حتى اقترب من مدينة فاس. ونزل بأحوازها وكتب لابن أخيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتابًا يعاتبه فيه على ما ارتكبه من الخلاف، ويدعوه إلى الدخول فى طاعته، كما دخل كل الناس وكتب فى نفس الوقت إلى شيوخ فاس، وفقهاءها كتبًا أخرى يدعوهم فيها إلى بيعته، ويتهددهم ويتوعدهم، محذرًا إياهم من مغبة الخروج عن طاعته، ووقعت هذه الكتب فى يد أمير فاس يحيى بن أبى بكر، فخشى أن يسلمها لشيوخ فاس، فيستجيبوا لنداء عمه، ويبادروا ببذل الطاعة له، فيخرج الأمر من يده، وعلى هذا آثر الأمير يحيى أن يجمع فقهاء المدينة وأشياخها، حيث قرأ الكتاب على أهل البلد مستشيرًا إياهم فى أمر الحصار، وكيفية دفاعه عن المدينة، والتصدى لقوات عمه، ولكن لم يوافقه الفقهاء وشيوخ المدينة على هذا الأمر، ونصحوه أن يبادر على الفور بمبايعة عمه، ولاسيما وأن الظروف الداخلية فى فاس لم تكن مواتيه لمثل هذا العصيان فأكثر أهل فاس كانوا غير راضين على هذه الحركة، بل كانوا يؤيدون الأمير على بن يوسف، فلما أدرك يحيى بن أبى بكر أمير فاس استحالة وقوف أهل فاس معه ويئس من تأيدهم قرر ترك المدينة[118]. وخرج الأمير يحيى بن أبى بكر فارًا إلى "مزدلى بن تيلكان" العامل وقتئذ على تلمسان، فلقيه مزدلى بوادى ملوية[119]، حيث كان مزدلى متوجهًا إلى المغرب الأقصى ليبايع الأمير المسلمين على بن يوسف، فأعلمه يحيى بما كان من شأنه وطلب من مزدلى أن يتوسط له عند عمه ليعفوا عنه فضمن له زولى من عمه العفو والصفح، ساعيًا له فى ذلك، وهنًا رجع يحيى بن أبى بكر مع مزدلى عامل تلمسان حتى وصلا إلى مدينة فاس، فأتفق مزدلى مع يحيى أن يختفى عن الأنظار فى حومة بأحواز فاس، ودخل مزدلى مدينة فاس مبايعًا لأمير المسلمين، وسلم عليه، فرأى منه قبولاً وإكرامًا، وهنا فاتح مزدلى أمير المسلمين على بن يوسف فى أمر يحيى، وبما ضمنه له عند أمير المسلمين من العفو والصفح، فأجابه إلى ذلك وعفى عنه وأمنه، فأتى يحيى وبايع لأمير المسلمين على بن يوسف[120].

وبعد مبايعة يحيى لعلى بن يوسف خيره بين الإقامة فى جزيرة ميورقة[121]. أو ينصرف إلى بلاد الصحراء، واختار يحيى بلاد الصحراء، حيث سار من هناك إلى بلاد الحجاز فقضى فريضة الحج، ورجع مرة ثانية للمغرب، حيث ذهب إلى عمه مستأذنًا إياه أن يكون من أحد حماته وأن تكون إقامته بمراكش العاصمة فأذن له فى ذلك، وأقام فيها مدة من الزمن[122].

وهكذا انتهت هذه الثورة حيث تمكن على بن يوسف من القضاء على حركة ابن أخيه فى مهدها. وكان من أهم نتائج هذه الثورة أن أمراء المرابطين قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أدركوا أهمية مدينة فاس لدولتهم فأخذوا يعملون على إحكام قبضتهم عليها، ولم يتيحوا لأمراء فاس بعد ذلك فرصة البقاء فى إمارتهم مدة طويلة خشية أن يستقلوا بالأمر.

كذلك زعزعت هذه الثورة أيضًا ثقة على بن يوسف فى أقرب أقربائه على رأسهم أخيه أبى الطاهر تميم الذى لم يمكث طويلاً فى أى منصب من المناصب التى كان يتولاها سواء فى المغرب أو الأندلس[١٢٣]. حيث عزله عن ولاية المغرب فى عام ٥٠١هـ/ ١١٠٧م، وولى مكانه القائد أبا عبد الله ابن الحاج، الذى أقام واليًا على مدينة فاس وسائر أعمال المغرب ستة أشهر ثم عُزل[١٢٤]. وفى عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م عين أمير المسلمين على بن يوسف، عبد الله بن فاطمة، على مدينة فاس حيث بقى بها عدة سنوات إلى المحرم سنة ٥٠٩هـ/ مايو ١١١٥م ثم عاد ابن فاطمة إلى الأندلس عاملاً على إشبيليه[١٢٥].

وتصمت المصادر التاريخية عن ذكر ولاة فاس من قبل المرابطين باستثناء ابن عذارى الذى يذكر أن "أبو العلا زهر" كان قائمًا بالأمر فى فاس وذلك بعد عام ٥١١هـ/ ١١١٧م.[١٢٦] ولكن لم تحدد المصادر تلك المدة، ويذكر ابن القطان وابن عذارى أن تميمًا بن يوسف بن تاشفين كان واليًا على فاس فى عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م، فعزله أخوه عنها، حيث وليها فى عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م عمر بن على بن يوسف[١٢٧]. لكن هذا الوالى تجاوز حدود ولايته فعزل، فوليها يحيى بن أبى بكر بن تيفلويت ابن أخت على بن يوسف، وكان يحيى واليًا على تلمسان وما وراءها، فجمع بين الولايتين حيث أناب لفاس موسى بن هارون[١٢٨]. هكذا حرص أمير المسلمين على بن يوسف على مراقبة ولاته على الأقاليم مراقبة دقيقة، كما كان يرقب سير الأمور عن كثب خشية استبدادهم بالأمر وإساءتهم السيرة.

هكذا وقامت مدينة فاس بدورها الجهادى ضد نصارى الأندلس فى عهد على بن يوسف فحين عزم على جهاده ألزم مدينة فاس بثلاثمائة غلام من العبيد السود الذين يملكونهم أهالى فاس ليغزون فى العساكر، على أن يتكلف الأهالى برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم، ويخرجون ذلك من أموالهم.[١٢٩] كما اهتم على بن يوسف بمدينة فاس، ولا سيما وأن الدولة المرابطية كانت قد بدأت حروبها مع الدعوة الموحدية فعمل على بن يوسف على إصلاح أسوار فاس، وزاد فيها أبراجًا، ووزع عشرين ألف دينار على أهل فاس معونة للجيش[١٣٠].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وباستثناء حركتى ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م وعام ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م يظهر أن فاسًا لم تعرف طوال عهد الدولة المرابطية تقلبات خطيرة، بل كانت هذه الفترة بالنسبة لها فترة سلم ونمو سريع منتظم[١٣١].

ثانيًا: الحياة السياسية بمدينة فاس فى عصر الموحدين

بداية الدولة الموحدية وصراعها مع المرابطين:

لم يكد ينعم المغرب الأقصى ومدينة فاس بالاستقرار فى ظل دولة المرابطين حتى ظهر على مسرح الأحداث داعية دينى قام بحركة تجديدية سرت فى أعماق نفوس كثيرة، سقطت على أثرها دولة المرابطين، وبنيت على أساسها دولة الموحدين.

كانت بداية هذه الدعوة عندما ظهر المهدى بن تومرت[١٣٢]، فى عام ٥١٤هـ/ ١١٢٠م بعد عودته من المشرق، فقهيًا مشتغلاً بالعلم والفتيا والتدريس آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر.[١٣٣] ونزل المهدى فى بداية دعوته بمدينة بجاية[١٣٤] فى قرية منها تعرف بملالة، ولقيه بهذه القرية عبد المؤمن بن على[١٣٥]. الذى انضم إلى خدمته وأخذ عنه العلم وعلم بما يقصد إليه من طلب الخلافة[١٣٦]. وبقى المهدى بقرية ملالة إلى أن خرج إلى ونشريس[١٣٧]، فصحبه بها محمد بن البشير[١٣٨].

أخذ ابن تومرت منذ اللحظات الأولى لدعوته يستنقص المرابطين أمراء المغرب وينسبهم إلى الكفر، ويدعو إلى خلع طاعتهم، ويمشى فى الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكسر المزامير والآت اللهو، ويريق الخمر حيثما وجده، يفعل ذلك فى أى بلد حل به وأى موضع نزله، إلى أن وصل مدينة فاس[١٣٩]. ولما دخل المهدى بن تومرت مدينة فاس نزل بمسجد ابن الغنام، ثم رحل منه إلى مسجد ابن الملجوم[١٤٠]، ثم منه إلى مسجد يعرف بطريانه[١٤١]. حيث قام به يدرس العلم ويحيى تعاليم الدين الصحيح التى كانت قد بدأت تتغير ويقف بصراحة فى وجه فقهاء المالكية، فهرع إليه طلبة فاس من كل مكان[١٤٢] وأراد ابن تومرت أن يخمد البدع التى كانت تتفشى فى بعض الأماكن بفاس حيث خرج بسبعة نفر من طلبته يحملون المقارع (المتخذه من شجر التين الذى لا ينتفع به) إلى زقاق بزقالة، ففرقهم على الحوانيت، آمرًا إياهم بتكسير ما كان فيها من آلات اللهو[١٤٣].

وبطبيعة الحال كان لأعمال ابن تومرت هذه ردود فعل مختلفة تراوحت ما بين الامتنان بالمصلح، وبين الحقد عليه[١٤٤]. ففى فاس قام أرباب الحوانيت بالصراخ، وساروا شاكين نحو قاضيهم عبد الحق بن معيشة ووقف القاضى من ابن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تومرت موقفًا متزنًا وقال لهم: "لولا ما رأى فى السنة ما كسرها، مروا فإنكم مخالفون للحق[١٤٥]". وجمع والى المدينة نفر من فقهاء فاس لمناظرة المهدى بن تومرت، فظهر عليهم وفاقهم، فأشار الفقهاء على الوالى بإخراجه من المدينة، فأخرجه الوالى حتى لا يفسد عقول العوام[١٤٦].

ارتحل ابن تومرت بعد ذلك إلى مراكش، عاصمة المرابطين، لعلمه أنه لا يظهر أمره إلا منها[١٤٧]. وفعل بمراكش ما فعل بغيرها من المدن[١٤٨] ولكن لم يكن لتترك حركة ابن تومرت لتنمو فى مراكش إذ أحضر الأمير على بن يوسف فقهاء مراكش لمناظرة ابن تومرت الذى أفحم خصومه، وحينئذ أشار علماء مراكش على أمير المسلمين على بن يوسف بإخراجه من المدينة خشية أن يفسد عقائد أهلها، فخرج من مراكش وابتنى له خيمة بين القبور قرب المدينة، وقعد بها حيث كثر أتباعه وتكاثر عليه الناس[١٤٩] وفى أثناء ذلك كان يأمر بخلع طاعة المرابطين فتبعه على ذلك خلق كثير، حتى هم على بن يوسف بقتله، فخرج إلى تينمل[١٥٠] وذلك فى شهر شوال سنة ٥١٤هـ/ يناير ١١٢١م حيث بلده هرغة من مصامدة السوس الأقصى[١٥١].

وفى تنميل توافد عليه الناس، فلما رأى ذلك أظهر دعوته، ودعا الناس إلى بيعته، فبايعوه بها، وكان أول من بايع المهدى، عبد المؤمن بن على، وباقى العشرة، ثم سائر الموحدين وبايعه بعد ذلك كثير من القبائل، وذلك فى شهر رمضان ٥١٥هـ/ نوفمبر ١١٢١م، ولقب بالمهدى بالمهدى، وكان لقب ذلك الإمام[١٥٢]. وأعلن ابن تومرت الحرب ضد دولة المرابطين، وأخذ المرابطون يعملون على إخماد هذه الدعوة فى مهدها، فجهز على بن يوسف جيشًا لمحاربة المهدى وأتباعه[١٥٣]. ولكن توالت الهزائم على جيوش المرابطين مرة تلو الأخرى[١٥٤].

ويذكر لنا البيذق ثماني غزوات للمهدى بن تومرت ضد القوات المرابطية لا مجال لذكرها هنا. لكن كان من أهمها الغزوة الثامنة، وهى المعروفة بوقعة "البحيرة"[١٥٥]. تلك الغزوة التى استعد لها الموحدون غاية الاستعداد، حتى بلغت قواتهم على حد قول صاحب الحلل الموشية أربعين ألفًا يتقدمهم أبو محمد البشير أحد أصحاب المهدى العشرة، حيث نزلت القوات الموحدية "بالبحيرة" ومكثت بها أربعين يومًا ثم ألقيت بعدها عساكرهم نحو العاصمة المرابطية مراكش، فخرج إليهم المرابطون فى أزيد من مائة ألف ما بين فارس وراجل[١٥٦]. وانتهت هذه الغزوة بهزيمة الموحدين هزيمة منكرة[١٥٧] حيث اتبعهم المرابطون من مراكش إلى أغمات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأمعنوا القتل فيهم ولم ينج منهم إلا اليسير، وقتل فى هذه الموقعة البشير قائد الموحدين، كما خسر الموحدون أكثر أصحاب المهدى العشرة[١٥٨]. وفقد فيها زهرة الجيش الموحدى الناشئ، وتعتبر موقعة البحيرة من أعنف المعارك التى وقعت بين المرابطين والموحدين[١٥٩].

وبعد هذه الموقعة بأيام قلائل توفى المهدى بن تومرت فى ٢٥ رمضان ٥٢٤هـ/ سبتمبر ١١٣٠م وبويع بعده عبد المؤمن بن على خليفة للموحدين، الذى قاد المرحلة الثانية من الصراع بين المرابطين والموحدين[١٦٠]. واستمرت الحرب بين عبد المؤمن بن على والمرابطين منذ أن بويع إلى أن توفى على بن يوسف فى ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م وكانت أمور دولته قد اضطربت منذ ظهور المهدى، وعبد المؤمن من بعده فلم يستقر للأمير المرابطى أمر حتى مات .. وبسبب هذه الحروب غلت الأسعار وتوالت الفتن، وعم الجدب، وقلت المجابى، وكثرت على أهل المغرب المحن.[١٦١]

وفى خلال ذلك نمت أحوال الموحدين، وعظم شأنهم فأستولوا على كثير من مدن المغرب التى كانت تحت سيطرة المرابطين[١٦٢]. وفى عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م حدث فى الصراع بين المرابطين والموحدين تحول خطير إذ تولى قيادة الجيش المرابطى الأمير تاشفين ولى العهد، الذى أخذ على عاتقه مطاردة الموحدين، واستئصال دعوتهم "مقتنعًا أنه يهزم كل من ناهضه، ويغلب كل من عارضه"[١٦٣]. فوقعت بينه وبين الموحدين حروب ووقائع كان للموحدين فيها الظهور عليه[١٦٤].

كانت تلمسان وفاس من المواقع الحصينة والمعاقل المهمة التى تمثل قاعدة لانطلاق القوات المرابطية فى حربها ضد الموحدين، لذا عمل عبد المؤمن بن على، على السيطرة عليهما واتخاذهما قاعدتين تنطلق منهما جيوشه للدفاع أو للهجوم على المغرب الأقصى والأندلس "فعزم عبد المؤمن أن يخرج بجمعه إلى جهة فاس وتلمسان لحشد أهل طاعته وجلبهم من كل مكان، وبلغت الجيوش الموحدية فى سيرها الجبال المجاورة لفاس"[١٦٥]. إزاء ذلك جند تاشفين جنوده وحشد حشوده وخرج لمواجهة عبد المؤمن بن على، فاتجه بالقوات المرابطية إلى مدينة فاس - المعقل المرابطى الحصين - فأستقر بها بعضًا من الوقت، وحوله رجال قيادته ليدرسوا خطة حاسمة ونهائية للقضاء على الموحدين، ولكن ذلك لم يتحقق للمرابطين، وقد نقصت عنهم القوات والميرة[١٦٦] فأقاموا بهذا الحصن شهورًا دون حطب ولا فحم حتى ألجأتهم الضرورة لحرق أوتاد أخبيتهم وخشب أبنيتهم[١٦٧].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن أمكن، ولكن لم يقدر لزناته أن تعود مرة أخرى إلى الكر، وظل ابن تاشفين متمسكًا بأسلوب التقرى تمهيدًا للدخول فى مرحلة رئيسية للاستيلاء على المدينة[٨٢].

وبعد أن تم ليوسف فتح البلاد المحيطة بفاس، زحف على المدينة بجميع جيوشه وشدد عليها الحصار، حتى دخلها عنوة بالسيف، فقتل بها من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة، وقبائل زناته خلقًا كثيرًا حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وأعوزت مدافنهم فرادى، فأتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات فقتل منهم بجامعى القرويين والأندلسيين ما يزيد على ثلاثة آلاف رجل، وفر من بقى منهم إلى أحواز تلمسان، وهو الفتح الثالث لفاس، وكان دخول يوسف ابن تاشفين إياها فى يوم الخميس جمادى الأخرى عام ٤٦٢هـ/ ١٨ مارس ١٠٧٠م[٨٣] ويجعل ابن عذارى ذلك عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م[٨٤]، ولكن هذا تاريخ عما تذكره المصادر الأخرى.

هكذا فوجئت قبائل زناته بيوسف بن تاشفين، ولم يستطع الزناتيون بفاس قتال ابن تاشفين، بل تخلوا عن البلاد، وانسحبوا مع أميرهم آملين فى الحصول على نجده، ولكن يوسف بن تاشفين انتقم من الهزائم السابقة التى حلت به من الزناتيين دون أن يجد أية مقاومة. ويبدو أن سكان فاس أمام هذا القتل فقدوا أى أمل من الزناتيين، فبدلاً من مساعدتهم قاموا بمطاردتهم وكأنهم رعايا ثائرون عليهم ثم التقوا بهم على وادى أبى رقراق بأمتعتهم وعائلاتهم مجهدين يكادون يموتون من الجوع، فأثخنوا فيهم ولم يفلت من أيديهم إلا من غرق أو قفز إلى أسفل الصخور، فتلك هى الصورة التى هلكت بها قبائل زناته[٨٥]. ويتضح لنا من خلال هذا مدى انحياز أهل فاس إلى قوات ابن تاشفين بعد أن تملكهم اليأس من نصرة الزناتيين، وهكذا شهدت مدينة فاس صراعًا مريرًا ومعارك مستمرة قرابة الثمان سنوات، إلى أن استولى المرابطون عليها.

وبسقوط فاس فى يد المرابطين تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات ذلك الصراع العنيف الذى احتدم بين زناته وبين صنهاجة الجنوب، وقد تفرق شمل زناته ولم تعد لها بالمغرب الأقصى قوة تذكر .. وكان الاستيلاء المرابطين على فاس أهمية بالغة الأثر، فقد فتح الطريق أماهم ليتموا فتح المغرب الأقصى كله، ويستولوا على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموحدين أراد أن يستقل حماس الوفود والحشود المجتمعة عليه من كل جهة ومكان فى فتح مدينة فاس[١٧٨].

ونزلت القوات الموحدية بالمقرمدة[١٧٩]، بادئة الحصار[١٨٠] ولما علم الأمير يحيى بن أبى بكر الصحراوى باقتراب الموحدين من مدينة فاس، أخذ ينظم خطط المقاومة والدفاع عن المدينة، ولكن عبد المؤمن لم يمهله فمنذ اللحظات الأولى أخذ فى بث عيونه ليتعرف على مدى حجم القوات المرابطية القابعة بفاس، مدركًا أنها من أكبر المعاقل الدفاعية للمرابطين، فأمر الخليفة الموحدى جماعة من أصحابه أن يسيروا إلى فاس ليعرفوا إن كان الصحراوى فى قوة أم لا[١٨١]. "مقدمًا جمعًا من الرجال للحرب والنزال وليعلم ما عند الصحراوى من خيل ورجال، وعلى رأس هؤلاء العيون أبو بكر بن الجير بألف رجل من هسكورة وصنهاجة، كانوا رجالاً دون خيل، فسار بهم أبو بكر على طريق الساحل، وجاز بهم نهر سبو، فصعدت عيون الموحدين ليلاً إلى جبل زلاغ"[١٨٢].

وأوقد ابن الجير النيران فوق هذا الجبل ليرهب بها المرابطين، فلما رأى أهل فاس ذلك، وقع فى قلوبهم الذعر، وعلموا أن القوات الموحدية تنزل بالقرب من المدينة بجبل زلاغ، فخرج الصحراوى من فاس ومعه أهل المدينة لقتال الموحدين وبلغت القوات المرابطية الخارجة لقتالهم قرابة الألف وخمسمائة فارس ما بين أهل المدينة ولمتونة، واشتبك الجيشان من الصباح حتى العصر ثم رجع الصحراوى إلى فاس، فى حين أشعل الموحدون النيران إلى منتصف الليلة، ثم رجعوا إلى عبد المؤمن[١٨٣].

كانت هذه السرية - إن جاز لنا أن نطلق عليها هذا التعبير - بمثاب جس النبض للقوات المرابطية بفاس، وأدرك منها عبد المؤمن قوتهم، وعرف أنهم يلجأون إلى خطة لكسب الوقت.

ثم انتقل عبد المؤمن بن على بالقوات الموحدية من المقرمدة إلى محلته بعقبة البقر[١٨٤]. ولا شك أن انتقال عبد المؤمن بن على إلى هذا المكان كان لأسباب استراتيجية يتميز بها هذا الموضع الجديد، والذى فيه ازدادت القوات الموحدية حتى ملأت السهل والوعر، وقام عبد المؤمن بن على بعملية التنظيمات الحربية لجيوشه حيث ميزهم[١٨٥] فى ثمانين ساقة على عدد القبائل والوفود، فنشروا ما معهم من البنود[١٨٦]، ووضع الخليفة الموحدى خطته من أجل إحكام قبضته على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينة فاس فجاز بقواته عبر وادى فاس ساقة بعد ساقة، حتى وصلت القوات الموحدية فى جوازها إلى منزل الحجاج بفاس[١٨٧].

هكذا تقدمت الجيوش الموحدية الجرارة إلى مدينة فاس، فى حين عسكرت القوات المرابطية بقيادة الصحراوى بالقصبة بجبل العرض - فى الشمال الغربى من فاس - لا يفصل بينها وبين القوات الموحدية سوى وادى يسمى سد زواغ، وخرج الصحراوى وأهل فاس ينظرون إلى مدى حجم القوات الموحدية فارتجوا عندما شاهدوا كل هذه الأعداد الغفيرة التى تحاصر فاس، وبقيت القوات الموحدية على أهبة الاستعداد لتنفيذ خطة هجومها فبدأوا بالقتال خيالة ورجالة، واستطاعت القوات الموحدية الاستيلاء على جبل العرض واستخلاصه من الصحراوى، الذى أسرع بجيشه لدخول مدينة فاس والتحصن بها، فى حين نشر عبد المؤمن بن على علمه المنصور على جبل العرض.[١٨٨]

بعد هذا الهجوم المفاجئ من جانب القوات الموحدية، لم يشأ عبد المؤمن أن يجازف بجيوشه لدخول فاس فى محاولة لا يعلم نتيجتها، فأصدر أوامره لقواته بالرجوع إلى المحلة، فى حين بقى هو فى منزل الحجاج فى ثلاثة آلاف وخمسمائة من عسكره يؤمن جواز قواته حتى جازوا ساقة بعد ساقة[١٨٩]. وذلك خشية أن تباغتهم القوات المرابطية فجأة.

وفى صباح اليوم التالى قسم عبد المؤمن جيشه إلى قسمين، فسار أبو بكر بن الجير إلى صنهاجة وهسكورة، وطلع الخليفة عبد المؤمن بباقى عسكره إلى جبل العرض، حيث اجتمع الجيشان بالجبل المذكور[١٩٠] وأدرك عبد المؤمن أن حصار فاس قد يطول أمده، لذا رأى أن يحصن محلته، فأمر بقطع الأشجار، فقطعت وعمل منها زروب لخيله احتياطًا على أهل محلته، واتقاء من الحرب وخدعة، فى نفس الوقت أمر عبد المؤمن بعض قواده أن يبنوا الحوائط خلف زروب خيله[١٩١].

ويبدو أن الذى دفع الخليفة عبد المؤمن بن على إلى ذلك العمل سببان مهمان: أولهما تأمين محلته واستعراض قوته أمام المرابطين، أما ثانيهما فهو نظريته فى إمكانية الاستغناء عن خشب هذه الدروب بعد إكمال الحائط، والاستفادة منها مستقبلاً فى أعمال عسكرية أخرى، وسوف نرى بعد قليل كيف استفاد الخليفة الموحدى من هذه الأخشاب.

وبالغ الموحدون فى حصار فاس[١٩٢]. حيث خرج عبد المؤمن بن على إلى سور المدينة وهدم باب السلسلة، فى محاولة منه لدخول المدينة، ولكن خرج إليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحراوى مع أهل فاس واستطاع بناء ما تهدم من السور[١٩٣] وبذلك تحطمت فى البداية كل جهود المحاصرين أمام ثبات الحامية المرابطية والسكان[١٩٤]. لكن لم يعد الصحراوى يخرج ليحارب الموحدين ثم يعود لمدينته، بل أمسى حبيسًا بالمدينة هو وجيشه، فرأى عبد المؤمن بن على أن الفرصة قد سنحت للقضاء على الدولة المرابطية المحتضرة، وأنه من الخطأ أن ينتظر سقوط فاس - المنيعة - بخطة الحصار الذى قد يطول أمده، والذى ربما يعطى الدولة المترنحة فرصة استعادة قوتها من جديد[١٩٥]. لذا ميز الخليفة عبد المؤمن عسكره، فخرج هو بعسكره إلى مدينة مكناسة لفتحها، وترك على فاس أبا بكر بن الجير بمحلته من الموحدين، وكان خروج الخليفة عبد المؤمن من محلته بالليل حتى لا يعلم أهل فاس بخروجه[١٩٦].

تابع الخليفة الموحدى وهو بمكناسة حصار قواته لمدينة فاس، فوجه من مكناسة أبا حفص عمر بن يحيى الهنتانى ليكون مع إبراهيم[١٩٧]. وأبا بكر الجير على حصار فاس، وطالت مدة الحصار على فاس حتى أنها بلغت تسعة أشهر، قاوم خلالها أهل فاس القوات الموحدية المحاصرة لمدينتهم[١٩٨]. كما برع خلالها الموحدون فى فن الحصار، حيث فاقوا المرابطين فى هذا المضمار، واستعمل الموحدون أسلحة متنوعة فى حصارهم[١٩٩].

فبعد الحصار الشديد حول فاس، قطع الموحدون عنها النهر الداخل إليها بالألواح والخشب - الذى كان قد استخدمه الموحدون من قبل فى عمل ذرائب لخيلهم وفى البناء - ورفعوا التراب على ذلك، وفعل ذلك سدًا بعد آخر حتى احتبس الماء، فصار بحيرة تسير السفن فيها، واستعان فى صنع تلك السدود بكثرة الآلات والعلم واتساع الفحص[٢٠٠]. وأدار المحاصرون أيديهم على الوادى خارقين هذا البناء فهبط الماء دفعة واحدة، فهدم سور المدينة، وهدم من دورها ما يزيد على ألفى دار، وهلك فيه خلق كثير، وكاد الماء أن يأتى على أكثرها[٢٠١].

هكذا تفنن الموحدون فى حصارهم من أجل أن يتمكنوا من دخول تلك المدينة المنيعة التى استعصى عليهم فتحها. أملين أن يساعدهم التخريب الذى يحدثه الماء على اقتحام المدينة، ولكن عمق الماء حال بين الموحدين وبين دخولها، واستطاع المحصورون إصلاح ما تصدع من الجدران[٢٠٢]. فدفع عنها الضرر، ووقف أهل فاس على متهدم السور يقاتلون القوات الموحدية[٢٠٣].

وكان يتولى مهمة الدفاع عن فاس الأمير يحيى بن على المرابطى، ومشرف المدينة والمدبر لأمرها أبو محمد عبد الله بن خيار الجيانى الأندلسى[٢٠٤]. وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمير والمشرف يعملان سويًا من أجل إنقاذ مدينتهم ولكن يبدو أن طول مدة الحصار المضروب على المدينة من قبل القوات الموحدية قد أتى ثماره، ولاسيما من الناحية الاقتصادية. فنتيجة لتدهور الأحوال الاقتصادية احتاج أمير فاس لبعض المال فطلب من الجيانى - مشرف المدينة - أن يعطيه ما يحتاج إليه، فأعطاه ما طلب. ولكن يبدو أن ما أعطاه الجيانى من أموال لأمير المدينة لم يكن ليكفى حاجة الأمير ومتطلبات مدينته، فطلب منه المزيد وضيق عليه، ولم يكن فى وسع الجيانى أن يعطيه أموالاً أخرى[٢٠٥]. هكذا تدهورت الأحوال الاقتصادية بالمدينة، ولم يعد فى وسع الجيانى مشرفها أن يفى بحاجات المدينة الأساسية.

ومن ثم بدأت الخلافات تدب بينه وبين الأمير المرابطى يحيى بن على، حتى وصلت إلى مداها، فأزمع الجيانى الانتقام منه[٢٠٦]. وأدرك الجيانى أنه لا مناص من دخول الموحدين المدينة، فرغب فى أن يؤمن نفسه من شرهم. "فأتفق هو وجماعة من أعيان البلد، على دخول الموحدين فاس سرًا، فكتب إلى قائد الموحدين أبو بكر بن الجير - واعدًا إياه أن يملكه البلد، قائلاً له: ميز عسكرك أفتح لك الباب، وكانت مفاتيح المدينة بيد الجيانى"[٢٠٧].

على أساس هذا المكتوب تم الاتفاق بين مشرف فاس من قبل المرابطين أبو عبد الله الجيانى وبين قائد القوات الموحدية المحاصرة لفاس على "دخول الموحدين فاس وخروج صاحبها منها، وتم الاتفاق على أن تدخل القوات الموحدية ليلاً"[٢٠٨]. كان على الجيانى والموحدين أن يتخيروا الوقت المناسب لدخول المدينة، وجاءت هذه الفرصة عندما تزوج الأمير المرابطى الصحراوى بامرأة من قومه ليلة الخامس عشر من ذى القعدة عام ٥٤٠هـ/ ٦مايو ١١٤٦م، فاستغل الجيانى ليلة العرس هذه فى تمكين الموحدين من دخول فاس، ولاسيما وأنه شغل الأمير المرابطى بكثرة ما أهدى له عن النظر لنفسه[٢٠٩]. واستعد الموحدون لدخول المدينة فميز أبو بكر قائد الموحدين عسكره، ولم يشعر الأمير المرابطى بشئ من ذلك حتى رأى رجال الموحدين على السور، وفى الصباح الباكر خرج الجيانى إلى الموحدين وفتح أبواب مدينة فاس ليمكنهم من دخولها[٢١٠].

وما أن رأى الصحراوى ذلك حتى أدرك أنه لا مجال للمقاومة، فلم يكن أمامه من محيص إلا الفرار والنجاة بنفسه[٢١١]، فركب فى ثلة من جنوده يريد الفرار فسار إلى باب الفتوح، فوجده مغلقًا، فضرب طبله هناك، فاجتمع عليه بعض عسكره،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكسر قفل باب الفتوح وخرج منه، وهبط بوادى سبو هاربًا هو وعمر بن يتتان، ويحيى بن سير وكدال بن موسى، وشيوخ لمطة[٢١٢].

وبذلك تمكن الموحدون من دخول فاس بعد حصارها تسعة أشهر بقيادة عبد المؤمن بن على وذلك فى شهر ذى القعدة عام ٥٤٠هـ/ مايو ١١٤٦م[٢١٣]. وأمن عبد المؤمن أهلها إلا من كان بها من المرابطين فأنه لم يمض لهم أمان وقتلهم قتلة كفر[٢١٤]. وعلى أثر المعاناة التى عاناها الموحدون فى اقتحام مناعة أسوار مدينة فاس جاء قرار الخليفة الموحدى السريع بهدم أسوار فاس حيث "أمر بهدم السور فهدمت فيه ثلمات كثيرة ومسافات؟ وردد مزهوًا هذه العبارة: "أننا لا نحتاج إلى سور، إنما الأسوار سيوفنا وعدلنا"[٢١٥]. وذلك لشدة غضبه من المقاومة التى واجها من أهل فاس وتحصنهم بأسوار المدينة[٢١٦]. وهكذا استسلمت مدينة فاس على يد مشرفها الجيانى[٢١٧].

وأقام الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على بفاس بعد فتحها مدة أربعة أيام[٢١٨]. لا شك أنه حطم خلالها القصبة المرابطية[٢١٩]. فى حين تابع قائده أبو بكر المرابطين الفارين بقيادة الصحراوى والذين كانوا قد وصلوا إلى بنى تاودا[٢٢٠]. حيث تحصنوا بها، على أن الصحراوى لم يدخل معهم ذلك الحصن خوفًا من الموحدين، حيث مضى هاربًا إلى طنجة، ثم إلى بلاد الأندلس، وبقى بقية الهاربين فى حصن أمركو، حتى أدركهم قائد الموحدين فساقهم كلهم إلى فاس إلا عمر بن يتتان[٢٢١] أما الجيانى فقد انضوى تحت لواء الموحدين .. وهكذا حققت خيانة الجيانى للمرابطين وللأمير المرابطى، مالم تحققه القوة، وذللت مالم تقو القوى على تذليله[٢٢٢] فبها سيطر الموحدون على فاس أكبر المعاقل المرابطية.

كانت مدينة فاس قد أفل نجمها بعض الشئ بسبب الحروب التى شنها عليها الموحدون[٢٢٣]. وما أن دخلها الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على حتى بدأ بجمع أسلحة أهلها من أيديهم مناديًا فى أهلها من وجد عنده سلاحًا وعدة وقتال حل دمه، فحمل أهل المدينة ما عندهم من سلاح إليه[٢٢٤]. هكذا بدأ الخليفة الموحدى عمله بالمدينة بهذا الإجراء التأمينى خشية الانقضاض المفاجئ من أهالى فاس على الموحدين.

ومكث الخليفة الموحدى بعض الوقت فى فاس ينظم شئونها على النسق الموحدى، فعين عليها واليًا من قبله وهو محمد بن يحيى الكدميوى فى حين ظل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد الله بن خيار الجياتي مشرفًا على فاس، مكافأه له، وقد تحسنت أحواله بعد ذلك فكان له في دولة الموحدين مكانة مرموقة[٢٢٥].

كان سقوط فاس في يد الموحدين الضربة القاسمة لقوى الدولة المرابطية، فقد توالى بعد ذلك سقوط باقي المدن المغربية، سلا[٢٢٦] ومكناسة وسبتة ومراكش عاصمة المرابطين عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م والتي بسقوطها زالت الدولة المرابطية[٢٢٧].

فاس في عصر الموحدين:

لم يتخذ الموحدون - كسابقيهم المرابطون - مدينة فاس حاضرة لهم، إنما جعلوا من مراكش دار مقام لهم، وقاعدة لدولتهم، لكنهم أدركوا مثل المرابطين أهمية أن يجعلوا من فاس إحدى قواعدهم الرئيسية للعمليات العسكرية، لاسيما أعمالهم الحربية في الأندلس، وليحصلوا منها على الميرة لجيوشهم[٢٢٨]. وظلت فاس في العصر الموحدي تشهد وفود الأمراء والقضاء والعلماء والفقهاء والخطباء والشعراء والأطباء جيئة ورجوعًا[٢٢٩]. واهتم الموحدون بفاس اهتمامًا كبيرًا، والذي من بعض مظاهره اهتمامهم بمنصب عاملها خاصًا فكان هذا المنصب لا ينوط به إلا لأفراد أسرة عبد المؤمن بن علي، أو من أخص الموحدين.

فكان عامل مدينة فاس بمثابة وزير للإقليم، له نائب خاص، يليه كتاب موظفون أصغر منه رتبة[٢٣٠]. ففي عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م عين أبو الحسن علي بن عبد المؤمن عاملاً على فاس، ومعه وزيره أبو يعقوب بن سليمان لتدريبه، ومعه من الكتاب أبو العباس بن مضاء يعلمه ويقرأ عليه[٢٣١]. وعليه فالنظام الأقليمي في الدولة الموحدية كان نسخة من النظام المركزي، كما كان هذا النظام يشبه إلى حد ما نظام العمالات في عهد المرابطين. وكان هؤلاء الولاة والموظفون الكبار يتلقون تكوينًا ثقافيًا وعلميًا قبل أن يعهد إليهم بتدبير شؤون الإدارة والأقاليم فكانوا يختارون من بين طبقة الحفاظ[٢٣٢]. وكان الخلفاء الموحدون يحثون عمالهم وولاتهم على إقامة العدل والتسوية بين الناس جميعًا[٢٣٣].

وفي نفس العام عهد عبد المؤمن بن علي بولاية العَهد لابنه محمد وأمر بذكره في الخطبة بعده[٢٣٤]. ولكن توليته لابنه لم ترض أخوة الخليفة المهدي بن تومرت، وهما عبد العزيز وعيسى اللذين عزما على نقد العهد وخلع طاعة عبد المؤمن، ففشى سرهما هذا، واستشعر الخليفة عبد المؤمن ذلك، فسرحهم إلى مدينة فاس[٢٣٥]. وفي فاس نمت حركة المعارضة لصالح أخوة المهدي ضد الخليفة عبد المؤمن بن علي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعندما اكتملت البيعة لمحمد بن عبد المؤمن، ووصل خبر تلك البيعة إلى الولايات، ازداد عيسى وعبد العزيز وأصحابهما حسدًا على عبد المؤمن وهم بمقرهم بمدينة فاس[٢٣٦]. وفى فاس نما حركة المعارضة لصالح أخوة المهدى ضد الخليفة عبد المؤمن بن على.

فعندما اكتملت البيعة لمحمد بن عبد المؤمن، ووصل خبر تلك البيعة إلى الولايات، ازداد عيسى وعبد العزيز وأصحابهما حسدًا على عبد المؤمن وهم بمقرهم بمدينة فاس[٢٣٧]. ورأوا أن الثورة بفاس لا تجدى فيما كانوا يأملون إليه لذا "بدأت المكاتبات بينهم وبين كثير من أشياعهم الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر ليكون ورودهم على مراكش بغته تفاجأها على حين لا تمهلها"[٢٣٨]. لذلك شدوا رحالهم إلى مدينة مراكش لينقضوا بيعة محمد بن عبد المؤمن، وتواعدوا مع أصحابهم على الاجتماع فى جامع على بن يوسف، وما أن وصل خبر خروجهم من فاس للخليفة عبد المؤمن بن على، حتى أسرع بتوصية وزيره أحمد بن عطية[٢٣٩] ليصدهم عما عزموا عليه، ويردهم عن التغيير الذى يأملوه، ولكن تمكن أخوة المهدى من دخول مراكش وقتلوا عاملها. وهنا بادر الخليفة الموحدى بالإسراع من مدينة سلا متوجهًا إلى عاصمته مراكش كى يقضى على هذه المؤامرة، وأخيرًا نجح فى القبض عليهما حيث "قتلوا وصلبوا"[٢٤٠] وبذلك انتهت هذه المؤامرة ضد عبد المؤمن بن على، والتى كان مركز تجمعها الأول مدينة فاس، ونستطيع القول أن أخوة المهدى لم يدبروا للأمر خطة محكمة، لذا جاء الانتهاء السريع لمؤامرتهم.

وبلغ من أهمية وإلى فاس فى عصر الموحدين أنه كان من الممكن أن ينوط إليه الاستخلاف فى غياب الخليفة عن مراكش. فعندنا تحرك الخليفة عبد المؤمن فى نهاية عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م استخلف على فاس وأعمالها يوسف بن سليمان بدلاً من ابنه أبى الحسن الذى كلفه بحكم مراكش مع أبى حفص بن عمر أثناء غيابه[٢٤١].

كان الخلفاء والأمراء الموحدين يتعمدون المرور بفاس جيئه وذهابًا أثناء جوازهم للأندلس، أو أثناء فتوحاتهم فى أفريقية، بالرغم من وجود طرق ثانوية أخرى[٢٤٢]. ففى عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م مر بها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مع السيدين أبو حفص وأبو سعيد وكثير من خاصة رجاله وذلك أثناء مسيرهم إلى مراكش، كما عرج إليها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عقب عودته من القضاء على ثورة قفصة بإفريقية[٢٤٣]. حيث وصل فاس فى شهر صفر عام ٥٧٦هـ/ يوليو ١١٨٠م[٢٤٤].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندما جاز الخليفة يوسف جوازه الثانى للجهاد بالأندلس فى نهاية عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م أقام بمدينة فاس شهر ذى الحجة من السنة المذكورة حتى أول عام ٥٨٠هـ/ أبريل ١١٨٤م، وفى خلال ذلك استنفر قبائل فاس للجهاد معه بالأندلس، حيث جازت معه قبائل هناته وتنيملل وصنهاجة وأوربة وأصناف البربر[٢٤٥].

وتابع الخليفة الموحدى بنفسه خلال مدة إقامته بفاس مهمة القضاء على المفسدين من العمال والولاة الذين تبين له أنهم يستغلون مناصبهم فأوقع بعبد الرحمن بن يحيى المشرف بمدينة فاس حيث صح عند الخليفة أنه خانه، وحمل على الرعية وأذاهم كثيرًا، فأنزل الخليفة به العقاب، وهو ومن تبعه فى هذا الظلم، مثل إبراهيم بن عبد الله الجيانى الخازن على المال الذهبى، كما ألحق العقاب أيضًا بالخازن على الطعام. وكانت خطة الخلافة فى القضاء على مثل هؤلاء المفسدين أن تصادر أموالهم ودورهم وتدخل إلى خزانة الدولة[٢٤٦].

ولم تقتصر حركة التصفية هذه على عمال فاس فقط، بل شملت ثمانى عشر عاملاً وخازنًا كان أولهم مشرف فاس، تمت مصادرة أموالهم وديارهم، ولم تترك الخلافة الموحدية سوى دار واحدة لكل منهم. وقد بلغ جملة ما انتهبه هؤلاء من أموال الرعايا ما قدره أربعمائة ألف دينار وستين ألفًا، أرغمهم الخليفة بدفعها، فتعهدوا بأن يقسطوها على أنفسهم وأشهدوا العدول بذلك[٢٤٧].

وفى الثامن عشر من ربيع الآخر من عام ٥٨٠هـ/ يوليو ١١٨٤م توفى الخليفة الثالث للموحدين يوسف بن عبد المؤمن، وبويع لابنه يعقوب المنصور بالخلافة فى التاسع عشر ربيع الآخر من نفس العام[٢٤٨]. وقد نعمت بلاد المغرب ومدينة فاس فى عهده بسياسة قوامها العدل، فأطلق سراح من فى السجون، ورد المظالم التى فعلها العمال فى أيام أبيه، وأكرم الفقهاء ورعى الصلحاء والفضلاء وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال، كما أوصى ولاته وعماله بالرجوع إلى أحكام القضاء وتفقد الخليفة أحوال الرعية، وعمل على ضبط الثغور وشحنها بالخيل والرجال[٢٤٩].

واتخذ الخليفة يعقوب المنصور مدينة فاس، كما أتخذها الخلفاء الموحدون من قبل - قاعدة لجنوده. "فعندما امتنعت مدينة قفصة على الموحدين واستولى عليها ابن غانية، تحرك الخليفة من مراكش فى شوال عام ٥٨٢هـ/ يناير ١١٨٧م، ووصل إلى مدينة فاس فأراح بها جنوده أيامًا عديدة وبرهة من الزمان مديدة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذلك لأن فاس كانت قاعدة المغرب، وأم القرى، وكان عاملها إذ ذاك أبا موسى بن مزين"[٢٥٠].

وكان عمال فاس وأهالى المدينة يقدمون خير ما عندهم من مؤن لهذه الجيوش حتى كان الرعايا يتنافسون فى ذلك، فيجدد المحاربون من فاس أزودتهم، وتكون لهم فرصة يتفقدون فيها أسلحتهم وعدتهم[٢٥١]. هكذا كانت مدينة فاس تقوم بدور هام فى عمليات الموحدين العسكرية سواء تعلق الأمر بأفريقية أو فتوحاتهم فى الأندلس.

وكان أهالى فاس يجدون فى مدة إقامة الخليفة فى فاس متنفسًا يتنفسون منه الصعداء، حيث كانوا يرفعون إلى الخلفاء الموحدين شكواهم تلك التى يبدو أن العامل على المدينة لا يستطيع حلها، أو أنه لم يتخذ فيها الإجراء المناسب لحلها. ومن تلك الشكاوى التى طرحت أمام الخليفة، ما رفعه أهل فاس إليه من أن القاسم ابن الملجوم بنى غرفه فى داره يشرف منها على بعض جيرانه، وجعلها منتزهًا له ولإخوانه، فعلى الفور أمر الخليفة بعض خاصته بالوقوف على تلك الغرفة، فوجدوها تشرف على بعض أقوام، فأمر المنصور بهدمها وتغير رسمها، فكان الخليفة يتبع بالعدل قضايا العباد ويمشى بالبحث على المتظلمين بكل منزل وواد[٢٥٢].

كان الموحدون لا يسمحون بأى حركة دينية تنموا أو تتغلغل فى دولتهم، فعندما ظهر الثائر الجزيرى[٢٥٣] عام ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م بمراكش حافظًا للمتشابهات من العلوم، أمر الخليفة يعقوب بن يوسف، السيد أبو الحسن حفص بالبحث عنه فى أنحاء المدينة، ولكن الجزيرى كان قد اختفى وخرج فارًا إلى مدينة فاس لعله تترعرع فيها دعوته وسط المجتمع الفاسى، وبالفعل امتزجت دعوته ببعض من أهل فاس، وتسامع خبر ذلك والى فاس آنذاك (ابن ومازير) فعمل جهوده فى القبض على من يعثر عليه من أتباع هذا الثائر، فأستأصلهم قتلاً ونفيًا، ولكن الجزيرى أفلت من محاولة القبض عليه، حيث كان قد جاز إلى الأندلس[٢٥٤].

وقد شهدت مدينة فاس فى أيام يعقوب المنصور الموحدى أكبر السفارات من الدول الأخرى، ففى عام ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م وصل أسامة بن منقذ (أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ) رسولاً عن صاحب الشام ومصر صلاح الدين الأيوبى[٢٥٥] الذى استصرخ الخليفة يعقوب المنصور يطلب إعانته بالأساطيل البحرية الموحدية لاستخدامها ضد النصارى الذين كانوا يستعدون لغزو الشام[٢٥٦].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خرجت هذه السفارة من الإسكندرية متجهة إلى المغرب، فوصل ابن منقذ أولاً إلى أفريقية، ثم إلى بجاية، وذلك فى شهر رجب عام ٥٨٦هـ أغسطس ١١٩٠م، فوصلت مكاتبات من والى أفريقية - أبى زيد - ووالى بجاية - أبى الحسن - تفيد ما يشير إلى وصول ابن منقذ إلى تلك البلاد، ومبالغته فى الحرص على كتمان خبر وصوله[٢٥٧].

وبالرغم من التكتم الشديد الذى لزم رسول صلاح الدين بشأن الغرض من سفارته، فأنه قوبل مقابلة طيبة من ولاة وعمال وممثلى يعقوب المنصور فى أفريقية والمغرب[٢٥٨]. وذلك لأن المخاطبات وردت من الخليفة يعقوب المنصور إلى ولاة المغرب بالتوسعة له فى نزوله والاحتفال به، على أن يستقر فى مدينة فاس انتظارًا لوصول الخليفة[٢٥٩]. الذى كان إذ ذاك ببلاد الأندلس بغرض الجهاد[٢٦٠]. وكان على رأس المسئولين المكلفين بمصاحبة أسامة بن منقذ الشاعر الفاسى أبو العباس الجراوى[٢٦١].

وقدم الخليفة المنصور الموحدى إلى مدينة فاس فى أول المحرم ٥٨٨هـ/ يناير ١١٩٢م واستدعى سفير صلاح الدين فقابله على اختصاص وانفراد، فدفع له ابن منقذ كتاب صلاح الدين، وقدم له هديته[٢٦٢]. وأوضح ابن منقذ للخليفة الموحدى الغرض من سفارته عارضًا له طلب صلاح الدين بالاستعانة بالبحرية المغربية لعرقلة المسيحيين فى المغرب، وعدم تمكينهم من إرسال المدد لإخوانهم فى الشام[٢٦٣].

وتلقى ابن منقذ الجواب من الخليفة مجملاً، معتذرًا له عن عدم إرسال الأسطول، وأحال الخليفة تفسير الأسباب التى دفعته إلى الاعتذار عن ذلك إلى الوزراء ليوضحوها لابن منقذ، وهمّ السفير الأيوبى بالعودة إلى بلاده، بعد أن حصل على ما تمكن عليه من الجواب، وأفاض عليه الخليفة الموحدى من الإحسان وضروب النعم حيث عوضه عن هداياه بأثمن منها[٢٦٤]. هكذا شهدت مدينة فاس هذه السفارة الأيوبية التى دامت مدة إقامة سفيرها قرابة العام ونصف العام.

وفى إطار تلقى الخليفة الموحدى للوفود بمدينة فاس، أنه فى عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م أقام الخليفة يعقوب المنصور بفاس لينظر فى أشغال أفريقية، وما يجب أن يقدمه لها من الاعتناء لإنهاء ثوراتها ضد الدولة الموحدية، فالتقى بمدينة فاس برؤساء قبائل العرب من السلميين والرياحين، الذين تعهدوا على أنفسهم فى لقائهم مع الخليفة بالالتزام[٢٦٥]. وتوفى الخليفة يعقوب المنصور فى ١٢ ربيع الأول عام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥٩٥هـ/ يناير ١٩١٩م وبويع لابنه أبى عبد الله الناصر فى العشر الأخير من ربيع الأول من نفس العام[٢٦٦]. وما أن تمت له البيعة من سائر الأقطار حتى خرج إلى مدينة فاس للإقامة بها فى جمادى الأولى من عام بيعته، ويبدو أن مدة إقامة الخليفة قد طالت حتى بلغت عامين، أمر خلالها ببناء أسوار مدينة فاس، وبناء قصبة الوادى[٢٦٧]. وجعل لها أبوابًا بعضها فخم عظيم[٢٦٨] هكذا أعاد الموحدون بناء أسوار فاس تلك التى كانوا قد حطموها عند فتحها. وقام بتلك الأعمال الخليفة الموحدى الرابع محمد الناصر، الذى أحاطها بأسوار منيعة بعضها قائم إلى اليوم[٢٦٩].

وفى عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م اشتعلت نار الفتنة بأكثر جهات إفريقية وكثر عن العرب إشاعة المكروه والمجاهرة بالسيئات، ووردت الأخبار للخليفة الموحدة بأن يحيى الميورقى قد غلب على كثير من بلادها، فخرج الناصر فى جمادى الأخرة عام ٥٩٩هـ/ مارس ١٢٠٣م من مراكش، ووصل إلى مدينة فاس، فأقام بها مدة ثلاثة أشهر، تفقد خلالها مصالح البلاد، وما يجب عمله من حماية للأهالى، كما عمل على تأمين الطرقات عاملاً على حسم علل المفسدين بها، وفى خلال ذلك جهز عساكر الموحدين والمجاهدين الذين وصلوا إلى قصر الخليفة حيث خرج بهم الناصر من مدينة فاس قاصدًا إلى إفريقية[٢٧٠].

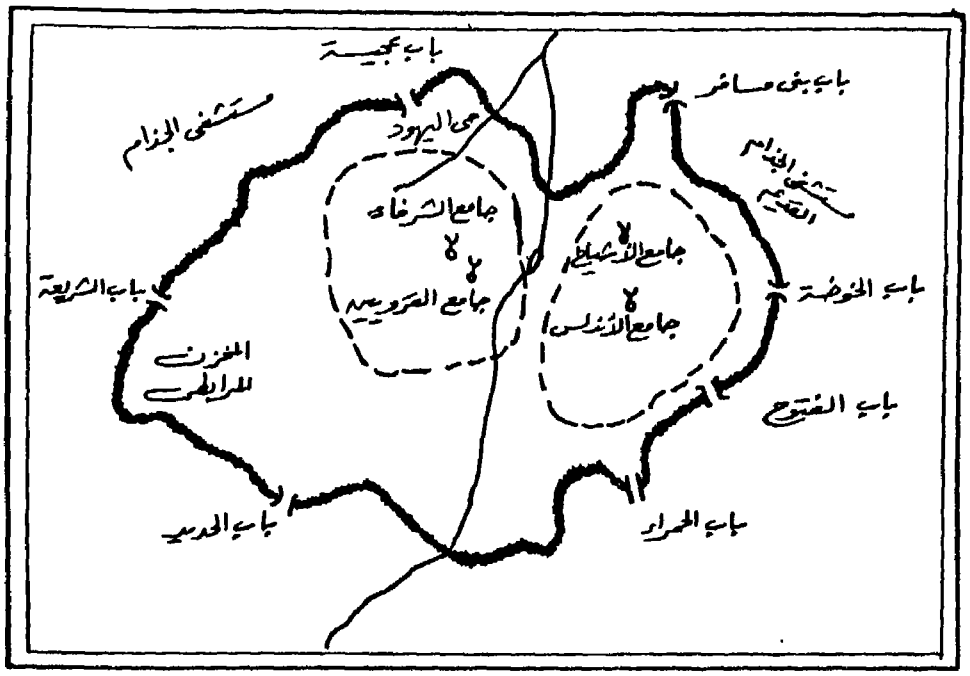

فاس قبل تأسيس فاس الجديد حسب كابار

كثير من آثار السور الموحدي تسمح بتأكيد أنه السور الذي بناه الخليفة الناصر الموحدي، يتطابق في عدة نقط مع التخطيط الحالي لسور المدينة، الخطوط المقطعة تذكر بالمظهر المفترض للمدينتين الإدريسيتين.

نقلا عن: لوطورنو: فاس قبل الحماية ج1 ص٨٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م انبعثت حركة جديدة من أحد الجبال بأحواز، فاس تختفى وراء دعوة الفاطميين، حيث ثار رجل منهم اسمه محمد بن عبد الله بن العاضد، آخر خلفاء الفاطميين بمصر، ظهر بعد مدة ثلاث وثلاثين سنة من قضاء صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية بمصر فى ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، لكى يعيد لها نفوذها القديم بالمغرب، معتمدًا على بقايا العناصر العربية المتبقية من الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى فى مدينة فاس وما حولها، والفاطميين وأتباعهم الذين سبق لهم الخروج من مصر بسبب الصراع الدامى بين الجند المغاربة والسودانيين. مستقلاً انتمائه إلى آل البيت[٢٧١]. وتصدى الخليفة لهذه الدعوة.[٢٧٢] حيث بهذا الداعى وقتل، وعلقت رأسه بباب الشريعة أحد أبواب فاس، كما أحرق جسده فى وسط هذا الباب المذكور، وكان يوم حرقه يوافق اليوم الذى كمل فيه بناء سور فاس، وبابها المذكور، حيث كان يتم تركيب مصارعيه فسمى الباب باب المحروق بعد أن كان يسمى باب الشريعة[٢٧٣]. وأصبحت من العادة أن تجرى هناك عمليات العقوبات والإعدام[٢٧٤].

وفى المحرم من عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م نزل الخليفة الناصر بمدينة فاس مجددًا النظر فى أشغال العمال، ممحصًا فيما أمرهم به من أعمال[٢٧٥].

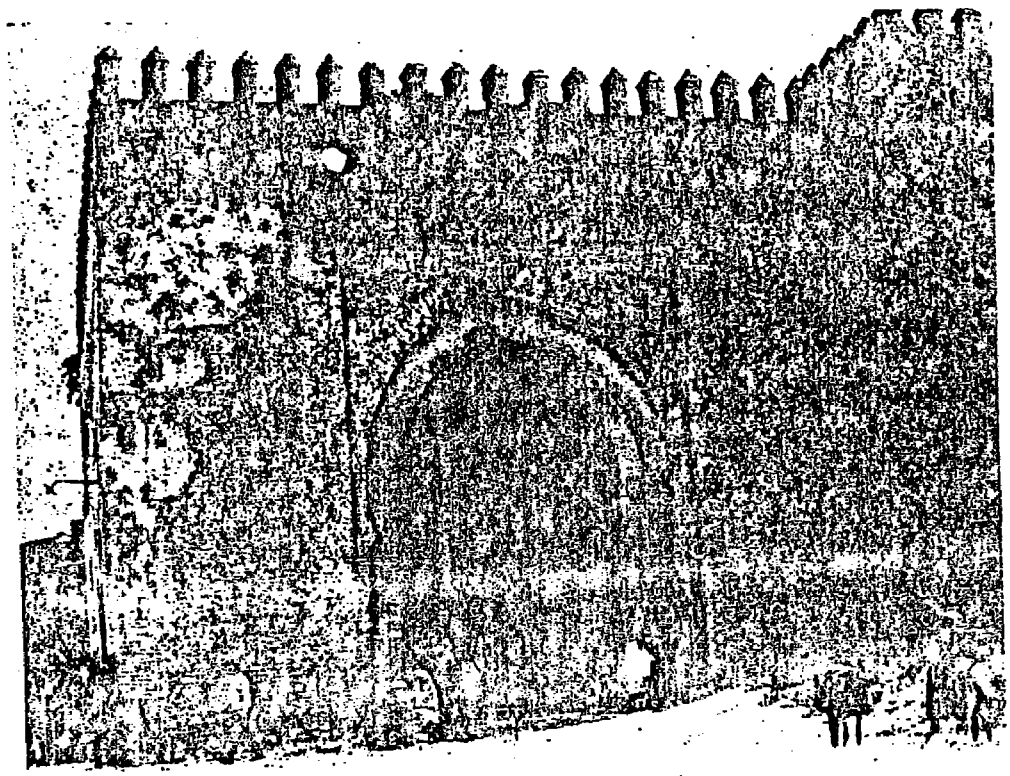

باب الشريعة (المحروق) بعدوة القرويين

نقلاً عن الجزنائـــى : جـنى زهرة الآس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى خلال إقامته بفاس وردت شكاوى قبائل المدينة وأهليها للخليفة ضد عامل المدينة أبى الحسن بن أبى بكر، فنكبه الخليفة، وصادر ما وجد لديه من أموال وأثاث، وتم حبسه[٢٧٦].

فى عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م وصلت الأخبار للخليفة الموحدى محمد الناصر أن الفونسو الثامن Alfonso VIII ملك قشتاله قام بالهجوم على الأندلس، فخرج الخليفة من مراكش، بغرض الدفاع عنه[٢٧٧]. وكانت الحالة فى بلاد المغرب الأقصى على أشدها من الضيق، وانتشار المجاعة وانعدام القوت بما لم يعهده الناس، مما أدى إلى بطء تحرك القوات الموحدية بقيادة الخليفة محمد الناصر، الذى وصل فى سيره إلى مدينة فاس، تلك المدينة التى كانت الجيوش الموحدية تستمد منها المؤن "وتحتقب منها الحقائب ويدخر منها الزاد للمقيم والذاهب، فوجدها الخليفة قد جف معينها، ولم يبق منها لمخازن السلطان الوافرة أثر، ووجد العمال قد استولوا على عموم المحلة، فتأثر الخليفة الناصر لما رأى من هذا الإهمال، وشدة إغفال المكلفين بالأعمال فاتخذ قراره بتوقيع العقوبة على المستهترين منهم، وأنزل السطوة على كل من تبين له أنه له يد فى وقوع هذا الضرر"[٢٧٨]. حيث أنفذ الخليفة أوامره إلى الشيخ أبى محمد بن أبى على بن مثنى صاحب الأعمال المخزنية والمفوض إليه بالأشغال العلمية، ليتقصى تلك الحقائق، ويقبض على عامل فاس (عبد الحق بن أبى داود) أكبر عمال الدولة الموحدية، ومن أحد أصحاب المنزلة والحظوة عند الخليفة الموحدى، فقبض عليه فى دار الإشراف، ولم يكتف بذلك بل توجه إلى منزله لاستصفاء أمواله، كما أمر بالقبض على كافة أصحاب هذا العامل وعماله، وأرسلت الكتب إلى سائر الجهات بتثقيف كل من خدم مع هذا العامل وغمس يده فى أشغاله[٢٧٩].

ووجه الخليفة الناصر عقابه هذا إلى كل من كانت تطابق أحواله أحوال صاحب فاس، فتم القبض على عامل قصر كتامة[٢٨٠] محمد بن يحيى المسوفى، كما قبض على أصحابه حيث وجهوا مصفدين لرئيس الأعمال بفاس[٢٨١] وكان الخليفة محمد الناصر قد جاز للأندلس لمحاربة الفونس الثامن Alfonso VIII، فوصلت الأوامر من الأندلس إلى ابن مثنى بقتل كل هؤلاء العمال والمفسدين، وذلك فى آخر عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢هـ فأخرج ابن مثنى المذكورين يوم الجمعة بعد الصلاة بحضور الآلاف من الناس فُضربت أعناقهم، عبرة للمفسدين وذكرى للغافلين[٢٨٢].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هكذا وقع العقاب على كل من كانت تسول له نفسه فى أكل أموال الدولة والرعايا وإحداث الضرر بالبلاد.

وعلى أثر هزيمة الموحدين فى موقعة العقاب عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م رجع الخليفة محمد الناصر إلى مراكش وأخذ البيعة لابنه يوسف الملقب بالمنتصر، وبايعه كافة الموحدين، وفى عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م توفى الخليفة محمد الناصر وتولى ابنه الخلافة[٢٨٣]. الذى ولى فى عام ٦١١هـ/ ١٢١٤م السيد أبا حفص إبراهيم بن إسحاق الملقب بالأمير الظاهر بن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، على مدينة فاس، وكان قبل ذلك يتولى أعمال غرناطة[٢٨٤].

محاولات بنى مرين للسيطرة على فاس:

بدأ الوهن والضعف يدب فى جسم الدولة الموحدية بعد هزيمتهم فى وقعة العقاب، ففى عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م بدأ بنو مرين[٢٨٥]. يشنون هجماتهم على مدن الدولة الموحدية، حيث وصلت عساكر من قبائلهم إلى جهة فاس، فخرج إليهم وإليها السيد أبو إبراهيم بمن كان معه من أجناد الموحدين بفاس، ولكن القوات الموحدية منيت بالهزيمة أمام بنى مرين، حتى وصل الأمر بالقبض على والى المدينة، ولكن أطلق بنو مرين سراحه بعد ذلك، فتأكدت بينه وبينهم المودة[٢٨٦]. وسمى هذا العام بعام المشعلة، لأن بنو مرين عندما انتصروا على عامل الموحدين بفاس سلبوا ثياب أهل المدينة وأخذوا دوابهم، وبالغ المرينيون فى تجريدهم حتى كان الأهالى يسترون عوراتهم بالمشعلة[٢٨٧].

هكذا ظهر بنو مرين على أيام الخليفة المستنصر، "وأخذ والى فاس يعدهم بالإكرام ويقدم لهم الاحترام، ويعظمهم ويقدم لهم الأموالى" واستمر على ذلك حتى عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٢م[٢٨٨].

وبوفاة الخليفة الموحدى المستنصر فى عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٢م بدأت الخلافات تدب فى الأسرة الموحدية، وبدأ الخلفاء ينازع بعضهم البعض على تولى الخلافة، فما أن بويع لأبى محمد عبد الواحد بالخلافة فى مراكش فى ١٣ ذى الحجة عام ٦٢٠هـ/ سبتمبر ١٢٢٣م، وخلص الأمر لمحمد العادل الذى بويع بمدينة مرسيه[٢٨٩]. ووصلته أيضًا بيعة الموحدين من مراكش، وقد ظل يتربع على عرش الخلافة حتى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م. حيث بويع ليحيى الناصر الذى استمرت خلافته حتى عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م هذا فى الوقت الذى بويع فيه لأبى العلاء المأمون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأشبيليه منذ عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م، الذى بايعه أهل مدينة فاس فكانت خلافة المأمون مع خلافة يحيى[٢٩٠].

وعندما توفى الخليفة المأمون، اجتمعت قبائل الموحدين على بيعة ابنه الرشيد بيعة خاصة لا عامة، وذلك فى المحرم عام ٦٣٠هـ/ أكتوبر ١٢٣٢م، فى حين خرج الناصر بجيش من الموحدين وبمن كان معه من العرب والمجندين، لمنع هذه البيعة وإثناء صاحبها عن الخلافة ودارت بينهما الحرب، فكانت الهزيمة على جيش يحيى الناصر، حيث دخل الرشيد مراكش منتصرًا، واستطاع الرشيد تجديد دولة الموحدين وتمهيد البلاد[٢٩١].

وفى خلافة الرشيد ظهر عرب الخلط بإفريقية وعظم أمرهم وأعلنوا رفض طاعتهم للموحدين، مما أدى إلى توجيه الرشيد إليهم، فهابوا قدومه وتفرقوا فى البلاد والقبائل، ثم توجه الخليفة إلى الغرب، قاصدًا مدينة فاس التى كانت الأوضاع بها سيئة للغاية، حيث وافق وصول الخليفة الرشيد لفاس أزمة شديدة، والمدينة على حد قول ابن عذارى تقشعر جلود أهلها من ارتفاع السعر بها، فأستقبله أهلها بنفوس تشتاق إلى لقاء حاكمها، داعين له بالنصر، فعمل الخليفة على جلاء غمة أهلها فى وقت قريب[٢٩٢]. وفى خلال إقامة الخليفة بمدينة فاس نظر فى أمور جنده، وأكد الطلب على المجابى من البلاد، ناظرًا فى أمور المدينة .. فجلبت له من قبائل غمارة وفازاز جباية عظيمة حصل منها الأجناد على مال كثير[٢٩٣].

فى هذه الأوقات كانت قبائل بنى مرين تشتد وطأتها، وكان الخلفاء الموحدون يهبونهم العطاء لإرضائهم وعدم قيامهم بأعمال ضد دولتهم، فعندما توجه الخليفة الرشيد إلى مدينة فاس فى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م، واستقر بها وصلته رسائل من بنى مرين، دعت الخليفة إلى استضافتهم بفاس حيث وصلهم بالإحسان وكثير من الكسوات الفاخرة[٢٩٤]. ولكن كان بنو مرين قد انتشروا بالمغرب، واشتدت شوكتهم به، فزحف إليهم الرشيد بجند الموحدين فهزموه أكثر من مرة[٢٩٥].

ولم يطل الوقت بالخليفة الرشيد، إذ توفى فى جمادى الآخرة عام ٦٤٠هـ/ ديسمبر ١٢٤٢ وتولى خلافة الموحدين من بعده أخوه أبو الحسن المعتضد المدعو بالسعيد، وذلك فى العاشر من جمادى الآخرة عام ٦٤٠هـ/ ديسمبر ١٢٤٢م[٢٩٦]. ومنذ ذلك الوقت بدأ نفوذ القبائل المرينية بالمغرب الأقصى يزداد قوة، لاسيما بعد تولية الأمير أبى يحيى بن عبد الحق فى عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م والذى بايعته القبائل المرينية وبعض القبائل الزناتية وغيرهم من القبائل، فأنقادوا لأوامره بالسمع والطاعة،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعظم أمر بنى مرين بالمغرب[٢٩٧]. فبدأوا بالاستيلاء على بلاد المغرب، وفرض الإتاوة على مدنه[٢٩٨].

وبذل الخليفة الموحدى جهدًا كبيرًا لإنقاذ دولته من ضغط القبائل المرينية عليها، فتحرك من مراكش فى عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م قاصدًا مواطن بنى مرين مستعدًا لحربهم وقتالهم، وتقدم فى تحركه هذا حتى وصل إلى مدينة فاس، فأستقر بها أيامًا قام خلالها بعزل بعض العمال على المدينة ووضع آخرين مكانهم، ونظر فى أمور المدينة وأحوالها[٢٩٩].

وأدرك الخليفة الموحدى السعيد أن تأمين مدينة فاس وإصلاح أحوالها قد يحول دون تقدم القوات المرينية إليها، لذلك رحل من مدينة فاس بعساكر الموحدين إلى المقرمدة، حتى يستطيع التعرف على أحوال بنى مرين. ويبدو أن قوة القبائل المرينية ويأسها دفع الخليفة الموحدى إلى مهادنتهم، حيث عاد من محلته هذه دون أى قتال يذكر معهم، ثم قفل بعد ذلك إلى عاصمة مراكش[٣٠٠].

وتوفى الخليفة الموحدى أبو الحسن المعتضد (السعيد) فى شهر صفر عام ٦٤٦هـ/ يوليو ١٢٤٨م[٣٠١]. الذى فى عهده بدأ بنو مرين فى توجيه ضربات قاسية للدولة الموحدية عاملين على الاستيلاء على بعض المدن الموحدية، واستحواذها وتملكها. ففى عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م أستولى أبو يحيى بن عبد الحق المرينى على رباط تازا مما سهل لهم مهمة الاستيلاء على مدينة فاس[٣٠٢] التى تحركت القوات المرينية للسيطرة عليها بعد شهر من فتحهم تازا، ونجحت فى الاستيلاء عليها حيث كانت الحامية الموحدية بالمدنية قليلة لا تقوى على مدافعة القبائل المرينية، فلم يكن بفاس حينئذ سوى نحو مائتى فارس من أجناد الدولة الموحدية تحت قيادة قائدهم المسمى شديد الرومى، فانحصروا بفاس وهلكت منهم أعداد غفيرة، ودخل بنو مرين فاس فى ١٨ ربيع الآخر عام ٦٤٦هـ/ أغسطس ١٢٤٨م وطاعت لهم المدينة[٣٠٣]. وكان يحيى بن عبد الحق المرينى قد ضمن لأهل فاس كف الأذى عنهم وحمايتهم فوثقوا بعهده ورغبوا فى الطاعة له، ونبذ طاعة الموحدين بعد أن يئسوا من نصرتهم[٣٠٤]. هكذا دخل المرينيون فاس صلحًا عن رضا أهلها الذين بايعوا بالرابطة بخارج باب المحروق (باب الشريعة) وكان أول من بايعهم الفقيه الصالح عبد الله القشتالى[٣٠٥] وعين المرينيون عاملاً على فاس من قبلهم وهو المسعود بن خربش الحشمى الذى أحكم قبضته مع جملة من المرينين على المدينة، فحبس من تبقى من الحامية الموحدية، وأدخل البعض منهم فى جملة أجناده[٣٠٦].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن يبدو أن من بين أهل فاس من كان لا يزال يشايع الموحدين فقد عمل بعض الأهالى على مساعدة قائد الموحدين على قتل العامل المرينى (مسعود) فتمكن من الغدر به، وسر أهل فاس بقتل العامل المرينى، وخاطب شيوخ المدينة وأهل عقدها وحلها الخليفة الموحدى المرتضى مجددين بيعتهم له، مواعدينه على نصرته، وهنا وردت مكاتبات الخليفة الموحدى بقرب وصول العساكر الموحدية لمدينة فاس لإنقاذها من سيطرة المرينين[٣٠٧].

ظل أهل فاس يقاومون ضغط بنى مرين نحو تسعة أشهر أملاً فى انتظار المدد العسكرى الموحدى[٣٠٨]، ولكن كانت ظروف الخلافة الموحدية قد تدنت بحيث لم تستطع إرسال قواتها لإنقاذ أهم مدينة من مدن الدولة الموحدية وقعت فى براثن القبائل المرينية.

وعندما رأى أهل فاس أن أحوالهم قد ضاقت بالجوع وطول مدة الحصار، واشتدار الضرر عليهم، دون وصول نجده الموحدين لهم طلبوا العفو من الأمير يحيى المرينى، الذى أصدر قراره بالعفو عن العامة من أهل فاس فى حين أوقع العقاب على خاصة أهلها، حيث أغرمهم أموالاً وبلغ جملة خاصة فاس الذين وقع بهم الضرر عل حد تقدير ابن عذارى ثلاث مائة رجل، أغرمهم الأمير المرينى على خطئهم ثلاثمائة ألف دينار، ولم يكتف بذلك بل ضرب أعناق ستة رجال من أعيانهم، وذلك فى عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[٣٠٩]. وبذلك استقرت أقدام بنى مرين بفاس، واستولوا عليها وعلى أعمالها فى هذه السنة[٣١٠].

وبدأ المرينيون يستقرون بفاس، ويتخذونها مقرًا لهم، ويبدو أن المرينين عملوا على إصلاح أحوال فاس، حيث هدأت الأحوال من الفتن، وصار ملك تلك البلاد للأمير أبى يحيى بن عبد الحق المرينى الذى استقر بفاس فى عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م فاجتمعت القبائل عليه[٣١١].

وحاول الخليفة الموحدى المرتضى القضاء على قوة بنى مرين هذه، فجد فى السير من مراكش، متأهبًا لقتالهم، وأعد عدده وفرسانه وأجناده مجددًا الحركة للحرب معهم، واستعد بنو مرين للقائه أيضًا، وتقابلت القوات الموحدية والمرينية فى موضع يعرف ببنى بهلول، من نواحى فاس كان الغلبة فيه لبنى مرين الذين هزموا القوات الموحدية حيث قاتلوهم واستأصلوهم أعظم استئصال مستولين على مضاربهم[٣١٢].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبهزيمة الموحدين هذه استولى بنو مرين بصفة نهائية على مدينة فاس حيث دخلها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق فملكها في عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م وطاعت له بلاد المغرب ما بين نهر ملوية وأم الربيع وسجلماسة وقصر كتامة[٣١٣]. هكذا سقطت تلك المدينة التي هيأها المرابطون ومن بعدهم الموحدون لتكون قاعدة لهم في أيدى الدولة المرينية، وتبوأت مركزها كعاصمة سياسية للمغرب الأقصى في ظل تلك الدولة[٣١٤].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠، ص٣.

٢- تعددت قبائل المرابطين من كدالة ولمتونة ومسوفه وورتريكه وفناوكا، وزوغاه ثم لمطه أخوة صنهاجة، وتقع منازل قبائلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب وواحة غدامس. عن قبائل المرابطين، انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦ ص١٨١، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص٣٩ - ٤٠، وعن مضارهم انظر نفس المرجع ص٤٤ - ٤٥.

٣- اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي التقى فيها يحيى بن إبراهيم بالفقيه أبي عمران الفاسي فيذكر كلا من ابن عذارى، البيان جـ٤ ص٧، وصاحب الحلل الموشية، ص١٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦ ص١٨٢، والقلقشندي: صبح الأعشى، في صناعة الانشا، القاهرة، المطبعة الأميرية ١٩١٥م، جـ٥ ص١٨٩، أنها عام ٤٤٠هـ، في حين يذكر ابن الأثير أنها في عام ٤٤٧هـ. الكامل في التاريخ، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨م، جـ٩ ص٢٥٨، وتنص المصادر على أن أبا عمران الفاسي توفي سنة ٤٣٠هـ، فلابد أن يكون هذا اللقاء تم حسب رواية ابن أبي زرع عام ٤٢٧، انظر الأنيس المطرب، ص١٢٢.

٤- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت دار الثقافة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، جـ٤ ص٧ مجهول: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق د/ سهيل زكار وعبد القادر زمامه، الدار البيضاء، دار الرشاد، ١٩٧٩، ص١٧ - ١٩، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٨١ - ١٨٢،

L. Goluin: Le Magrib Central, p. 116.

٥- مجهول: الحلل الموشية، ص٢٠، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص٦٠٦.

Terrasse: Histoire du Maroc, tome I, p. 214.

٦- وجاج بن زللو هو فقيه تقي ورع حاذق من أهل السوس الأقصى، لقي الشيخ أبا عمران الفاسي بالقيروان وأخذ عنه علمًا كثيرًا، وكان يتعبد بمدينة نفيس ويدرس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلم ويدعو الناس إلى الخير في رباط له هناك، وله تلاميذ جمة يدرسون على يده العلم، انظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٢٣.

٧- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٨٢، السلاوى: الاستقصا، جـ١ ص٩٩.

٨- مدينة نفيس: تقع بالجنوب الغربى من مدينة مراكش، وهى مدينة قديمة صغيرة، غزاها عقبة بن نافع وحاصر بها الروم ونصارى البربر عندما اجتمعوا بها بسبب حصانتها، فضيق عليهم الحصار حتى فتحها عام ٦٢هـ/ ٦٨١م وبنى بها مسجداً معروفًا به، وبين نفيس والبحر المحيط مسيرة يوم واحد، ويسكن المدينة قبائل من البربر أكثرهم من مصموده، انظر البكرى: المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١٦٠، الحميرى: الروض المعطار ص٥٧٨.

٩- القاضى عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، وتحقيق د/ أحمد بكير محمود، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٦٧، المجلد الثانى، جـ٤ ص٧٨١ مجهول: الحل الموشية، ص٢٠.

10- L. Goluin: Op. Cit., p. 116.

١١- القاضى عياض: المصدر السابق، المجلد الثانى، جـ٤ ص٧٨١، ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٤ ص٨، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٨٢.

١٢- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٨٣، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص١٠٠.

13- J. Spencer (triminghan): History of islam in west Africa, Oxford University, Preespaper book, 1978, p. 23.

١٤- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٨٣، محمد الفاسى: التعريف بالمغرب، معهد الدراسات العربية، مطبوعات لجنة البيان المغربى، ١٩٦١، ص٤١.

١٥- البكرى: المصدر السابق، ص١٦٤، حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٤٩.

١٦- القاضى عياض: المصدر السابق، المجلد الثانى، جـ٤ ص٧٨١، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٢٦، ١٢٨، ابن خلدون: جـ٦، ص١٨٣، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص١٠٢.

١٧- مجهول: نبذ تاريخية فى مفاخر البربر، ص٥٢. مجهول الحلل الموشية، ص٢١، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٢٦ - ١٢٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٨- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص١٨٦، محمد عبد الهادى شعيره: المرابطون وتاريخهم السياسى، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٩، ص٥٥.

١٩- درعة: تقع فى جهة سجلماسة بينهما ثلاثة مراحل وتعرف باسم واديها حيث يجرى نهر درعة من الشرق إلى الغرب منبعثًا من جبل درن، وهى من المدن العامرة. انظر الحميرى: المصدر السابق، ص٢٣٥، ٢٣٦.

٢٠- ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٤ ص١٣ - ١٤، مجهول: الحلل الموشية، ص٢٢، ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٦، ص١٨٣.

٢١- تافيليت: مدينة بالمغرب الأقصى تقع فى منطقة السوق الأقصى انظر، الزهرى: كتاب الجغرافيا، ص١١٨.

٢٢- البكرى: المغرب، ص١٦٧، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، ص٦١١.

٢٣- ماسة: تقع بالسوس الأقصى، وهى رابطة عظيمة الشأن، نُسبت للمدينة التى فتحها المسلمون، وهدموها عند فتحهم للسوس الأقصى، وهى تامست. انظر، الزهرى: كتاب الجغرافيا، ص١١٧.

٢٤-تارودانت: قاعدة اقليم السوس فى جنوب مدينة مراكش، على مسيرة مائة ميل من الجنوب الغربى من مراكش، تقع على نهر وادى سوس، وهى من أكثر بلاد المغرب زراعة لقصب السكر. انظر الزهرى: كتاب الجغرافيا، ص١١٧، الحميرى: المصدر السابق، ص٣٣٠.

٢٥- ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص١٢٨ - ١٢٩، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٦١١.

٢٦- أغمات: مدينة مغربية قديمة تقع بقرب وادى درعة جنوب مدينة مراكش، وهى عبارة عن مدينتين أحدهما تسمى أغمات وريكة، والأخرى أغمات هيلانة بينهما نحو ست أميال، وكان أغلب أهل أغمات تجار تربطهم علاقات تجارية ببلاد السودان، حيث كانت المدينة قاعدة للتجهز لبلاد الصحراء. وبالمدينة يوجد قبر المعتمد بن عباد الذى دفن بها بعد أن توفى بسجنها عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥. انظر الحميرى: الروض المعطار ص٤٦.

٢٧- تامسنا: مدينة فى غرب فاس بالمغرب الأقصى، يخترقها نهر أم الربيع، وكذلك نهر أبو الرجراج "أبو الرقراق" الذى يصب فى المحيط بين مدينة سلا والرباط.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انظر أحمد مختار العبادى فى تحقيقه لمشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والأندلس، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣، ص١٥٦.

٢٨- برغواطه: اتسم تاريخهم فى المغرب الأقصى بالغموض، فقد اختلف المؤرخون حول أصل البرغواطيين، فقال البعض أنهم كانوا قومًا جهالاً من زناته، ورأى البعض الآخر أنهم اخلاطًا شتى من قبائل البربر، واعتبر البعض الآخر أن أباهم يهودى أندلسى، ورأى آخرون أنهم مجوس أهل ضلال وكفر لهم ديانة خسيسة. وكانت مضارب قبائل برغواطه تقع فى إقليم تامسنا. عنهم انظر البكرى: المصدر السابق ص١٣٤ - ١٤١، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٣٠ - ١٣٣، ابن خلدون: المصدر السابق جـ٦، ص٢٠٧ - ٢١٠، وانظر كذلك محمود إسماعيل فى مقاله حقيقة المسألة البرغواطية، منشور ضمن كتاب مغربيات، فاس، ١٩٧٧، ص١٥ - ٥٣.

٢٩- القاضى عياض: المصدر السابق، جـ٤ ص٧٨٢، ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٤ ص١٦، ويجعل ذلك فى عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٣٠، ١٣١.

٣٠- لواته: مدينة مغربية أخذت اسمها من قبيلة لواته التى أسستها وسكنتها، تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة صفرو على نهر سبو، وكانت قصبة منيعة على بعد مرحلة من فاس. انظر: البكرى: المصدر السابق، ص١٤٧.

٣١- مجهول: نبذ تاريخه فى مفاخر البربر، ص٥٢، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٤ ص٢٠ - ٢١، الذى يجعل ذلك عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م وهو تاريخ متأخر لا يتوافق مع ما ورد فى المصادر الأخرى، كما أنه لا يتوافق مع سير الأحداث، مجهول: الحلل الموشية، ص٢٣ - ٢٤.

٣٢- عن تلك الغزوات، انظر ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، صفحات ١٣٩، ١٤٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون جـ٦ ص١٨٤ - ١٨٦.

٣٣- عبد الوهاب منصور: قبائل المغرب، جـ١ ص١٢٤،

terrasse: Op. Cit., Tome I, p. 233.

٣٤- مراكش: تقع جنوب نهر أم الربيع بالمغرب الأقصى، واستمرت هذه المدينة عاصمة للدولة المرابطة ثم للدولة الموحدية حيث أصلح الموحدون كثيرًا من أمورها، انظر الزهرى: كتاب الجغرافيا، ص١١٥ - ١١٦. لكن قلت مكانة مراكش السياسية فى عهد بن مرين عندما صارت مدينة فاس عاصمة لدولتهم. ويذكر ابن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عذارى وعبد الواحد المراكشى أن مراكش أسسها يوسف بن تاشفين عام ٤٦٢هـ/ ٤٦٣هـ، انظر البيان المغرب، جـ٤ ص١٩ -٢٠، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص١٥٧.

٣٥- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٣٨ - ١٣٩، عبد الوهاب ابن منصور: المرجع السابق، جـ١ ص١٢٤.

٣٦- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص١٨٦، عبد الهادى شعيره: المرجع السابق، ص٥٥.

٣٧- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص١٩٨.

٣٨- مجهول: نبذ تاريخه فى مفاخر البربر، ص٥٢، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨ ص٧٦.

٣٩- لسان الدين بن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثالث، ص١٦٢.

٤٠- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص١٩٥.

٤١- محمد محمد إبراهيم: الجيش فى عهدى المرابطين والموحدين، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٢ ص١٠.

٤٢- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٢٠١.

٤٣- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٣٩، قارن كذلك لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص٢١٥. ويرى الدكتور حسن أحمد محمود فى زيادة عدد الجيش على مائة ألف فارس قول مبالغ فيه، ولكنه يدل على أن الطابع البدوى الذى كان من سمات القوات المرابطية الأولى قد بدأ يختفى، وبدأت الجيوش المرابطة تنظم على أساس حديث، انظر قيام دولة المرابطين، ص٢٠١.

٤٤- صدينه: كانت مدينة صدينة واقعة إلى الشمال من فاس قرب نهر سبو. انظر دار المنصور للطباعة فى تحقيقها للأنيس المطرب، ص٨٤.

٤٥- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٣٩، السلاوى: الاستقصا، جـ١ ص١٠٨، حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٢٠٢ - ٢٠٣.

٤٦- محمد بن تاويت الطنجى: سبتة الأسيرة، مجلة البحث العلمى، السنة الثالثة عشر، العدد ٢٥، يناير، يونيو ١٩٧٦، ص١٢٣، تاريخ سبته، الدار البيضاء، دار الثقافة للطباعة ١٩٨٢ ص٤٩.

٤٧- مجهول: جمع تواريخ فاس، ص٢٠، ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١١٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤٨- مكناسة: تقع غرب مدينة فاس، بينهما أربعون ميلاً فى جهة الغرب، وهى أربع مدن وقرى متصلة، وهى مدينة كثيرة الخير جليلة حافلة مشتهرة بكثرة الزيتون. انظر الزهرى: كتاب الجغرافيا، ص١١٥، الحميرى الروض المعطار، ص٥٤٤.

٤٩- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦ ص١٨٤،

Terrasse: Op; cit., Tome I, p. 224.

٥٠- محمد بن تاويت: تاريخ سبته، ص٤٩.

٥١- طنجه: مدينة قديمة بالمغرب، فهى تقع مكان مدينة أوليلى القديمة التى افتتحها عقبة بن نافع، والتى تقع على شاطئ بحر الزقاق، وهى بذلك آخر حدود إفريقية من المغرب، بينها وبين مدينة القيروان نحو ألف ميل، كما أن بين مدينة طنجه وسبته ثلاثون ميلاً فى البر، انظر الحميرى: المصدر السابق، ص٣٩٥ - ٣٩٦.

٥٢- الحاجب سكوت البرغواطى: ويكتب أيضًا سقوت أصله من قبيلة برغواطه، أسر فى حرب غمارة وبرغواطه، وانتهى أمره إلى أن صار عبدًا لشيخ من غمارة ثم صار لعلى بن حمود الإدريسى، وبفضل قومه وصل إلى الخلافة فولاه على طنجه وسبتة، وأطاعته غمارة وبعد سقوط دولة الحموريين ظل سكوت يحكم طنجه وسبت، ولما قامت دولة المرابطين ووصل يوسف بن تاشفين إلى شمال المغرب توجه إلى طنجه واستولى عليها من يد سكوت الذى قتل فى الحرب. انظر ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص٢٢١ - ٢٢٢.

٥٣- تازا: تقع فى شرق مدينة فاس بنحو ١٢٧كم تفصل بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، وتمتاز هذه المدينة بموقع استراتيجى ممتاز جعلها منذ أقدم العصور مركزًا حربيًا له خطورته. انظرى الحميرى: المصدر السابق، ١٢٨، أحمد مختار العبادى: فى تحقيقه لمشاهدات لسان الديك بن الخطيب، ص١١٤.

٥٤- نكور: مدينة قديمة بالمغرب الأقصى قرب مدينة مليلة تبعد عن البحر المحيط بنحو من خمسة إلى عشرة أميال فتحها سعيد بن إدريس ابن صالح الحميرى الذى دخل أرض المغرب فى أيام الوليد بن عبد الملك ابن مروان فى الافتتاح الأول للمغرب قيل موسى بن نصير. انظر البكرى: المغرب، ص٩٠ - ٩١، الحميرى: المصدر السابق، ص٥٧٦ - ٥٧٧.

٥٥- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٤٠، محمد عبد الهادى شعيره: المرابطون وتاريخهم السياسى، ص٨٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥٦- محمد محمد إبراهيم: المرجع السابق، ص١٩٤.

٥٧- أسلوب التقرى: التقرى فى اللغة، استقرى البلاد أى تتبعها يخرج من أرض إلى أرض، انظر مادة تقار واقتر، المعجم الوسيط، جـ٢ ص٧٢٥.

وهو عبارة عن أسلوب فى الحرب توجه به الجيوش إلى منطقة معينة على ألا تقف محاصرة لمدينة معينة، مكتفية بحرب الجيوش التى تخرج إليها فقط، ومكتفية بما يمكن أن تحصل عليه من مكاسب. وأسلوب التقرى من الأساليب التى تطول فيها العمليات العسكرية. انظر عبد الهادى شعيرة، المرجع السابق، ص٨٨.

٥٨- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦ ص١٨٤.

٥٩- عبد الهادى شعيره: المرجع السابق، ص٨٨، محمد محمد إبراهيم: المرجع السابق، ص١٩٥.

٦٠- صفرو: مدينة بالمغرب الأقصى تقع جنوب مدينة فاس، تشتهر بطيب الماء والهواء، وكثرة الفاكهة. انظر الزهرى: كتابه الجغرافيا، ص١٥٥.

٦١- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٣٩، لسان الدين بن الخطيب المصدر السابق، ص٢٣٥.

٦٢- ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص١٣٩ - ١٤٠، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص١٨٤، السلاوى، الاستقصا، جـ١، ص١٠٨. ويذكر صاحب جمع تواريخ فاس أن هذا الفتح تم عام ٤٦٠هـ، انظر ص٢٠. ويرى الدكتور حسن أحمد محمود أنه خلط بين الحملة الأولى والثانية، وأن تحديد الفتح بعام ٤٥٥هـ مقبول إلى حد ما. فى حين يرى الدكتور عبد الهادى شعيرة أن الفتح الأول لفاس كان عام ٤٥٦هـ وليس عام ٤٥٥هـ حيث قبل يوسف بن تاشفين الصلح بعد فرار معنصر عنها، والذى كان قد استبسل فى المقاومة، ويهمل فاس قرابة عامين كاملين من منازلته إياها فى آخر عام ٤٥٤هـ ليعود إليها فى عام ٤٥٦هـ وهو فى حاجة لتثبيت فتوحاته، هذا إلى جانب أن المصادر لا تذكر خلال تلك الفترة سوى أنه توجه إلى مدينة صفرو حيث تم فتحها عنوه.

انظر حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص٢٠٢، عبد الهادى شعيره: المرابطون وتاريخهم السياسى، ص٩٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦٣- عبد الهادى شعيره: المرجع السابق، ص٩٠، سعدون عباس: دولة المرابطين فى المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين، بيروت، دار النهضة، ١٩٨٥، ص٤٥.

٦٤- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٤٠، عبد الهادى شعيره: ص٩٠.

٦٥- عبد الهادى شعيره: المرجع السابق، ص٩٠.

٦٦- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٤٠، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص١٣٧، ١٨٥، جـ٧، ص٣٦، ويجعل ابن خلدون معنصرًا هو الذى دخل فاس وقتل عامل المرابطين، فى حين تذكر المصادر الأخرى أن تميمًا هو الذى فعل ذلك، انظر لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعمال، القسم الثالث، ص١٦٧.

A bun Nasr (Gamal): History of The Magrib, combridse, Secand edtition, 1977, p. 97.

67- L. Goluin: Le Magrib Central, p. 40.

٦٨- محمد بن تاويت: المرجع السابق، ص٥٠.

٦٩- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٤٠، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص١٨٥.

٧٠- عبد الهادى شعيره: المرابطون وتاريخهم السياسى، ص٩٠.

٧١- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٤٠، لسان الدين بن الخطيب المصدر السابق، ص١٦٣، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٨٥ السلاوى: الاستقصا، جـ١ ص١٠٩، عبد الهادى شعيره، المرجع السابق، ص٩١.

٧٢- لسان الدين بن الخطيب: المصدر السابق، ص١٦٣، ويذكر ابن الخطيب إن ذلك الفتح كان عام ٤٦١هـ ولكن هذا لا يتفق مع ما ذكره الآخرون الذين يجعلون ذلك عام ٤٦٠هـ. انظر ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٧ ص٣٦، الذى يذكر أن ذلك الفتح قد تم فى عهد معنصر.

٧٣- عبد الهادى شعيره: المرجع السابق، ص٩١، سعدون عباس: المرجع السابق، ص٤٦.

٧٤- تسول: تعرف بعين أسحف كانت قاعدة لموسى بن أبى العافية وهى على ثلاثة أميال من مدينة فاس، انظر البكرى: المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١٤٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧٥- وادى سيمر: على ما يبدو اسم الوادى نهر اسمير الذى يصب فى البحر المحيط بالموضع المسمى قصر بنى تاورده. انظر الزهرى: كتاب الجغرافيا، ص١١٥.

٧٦- قلعة فازاز: تقع جنوب سهل سايس بين وادى ملوية ووادى العبيد وفازاز من الجبال المشهورة فى بلاد المغرب تسكنه أمم كثيرة من البربر. انظر مجهول: الاستبصار فى عجائب الأمصار، ص١٨٧، الحميرى: الروض المعطار، ص٤٣٥.

٧٧- ابن ابى زرع: المصدر السابق، ص١٤٠، ١٤١، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص١٨٥،

A bun Nasr (Gamal) Op. Cit., p. 97. ١

٧٨- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٢٠٤، عبد الهادى شعيره: المرجع السابق، ص٩١، سعدون عباس: المرجع السابق، ص٤٧.

٧٩- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٢٢٣.

٨٠- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٤١، عبد الهادى شعيره: المرجع السابق، ص٩١.

٨١- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٢٠٤.

٨٢- عبد الهادى شعيره: المرجع السابق، ص٩٢.

٨٣- ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص١٤١، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص١٨٥، القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشا، جـ٥، ص١٨٨، السلاوى الاستقصاء، جـ١، ص١٠٩.

جـ١ ص١٠٩، ويذكر كل من: ابن عذارى: البيان، جـ٤ ص٢٨، وصاحب الحلل الموشية، ص٢٨، واسماعيل بن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى ص٣٠، أن فتح مدينة فاس كان عام ٤٦٧، وكان أميرها الفتوح بن دوناس ولعلهم جميعًا نقلوا من مصدر واحد، وواضح أنه تاريخ مضطرب حيث من المعروف أن الفتوح بين دوناس تخلى عن مدينة فاس قبل عام ٤٥٧ هـ ويذكر أن أبى زرع فى موضع آخر من الأنيس أن عدد القتلى من قبائل زناته فى جوامع فاس وأزقتها ما يزيد عن عشرين ألفًا، انظر ص١١٣، فى حين يذكر لسان الدين بن الخطيب فى أعلام الإعلام، القسم الثالث: أن عدد القتلى من القبائل الزناتية بفاس ثلاث واربعون ألفًا، انظر ص٢٣٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو وأن كان رقمًا مبالغًا فيه إلا أنه يوضح لنا مدى انتقام المرابطين من المقاومة الزناتية، كان يعطى لنا صورة واضحة عن مدى انهيار الحلف الزناتى أمام ضربات يوسف بن تاشفين.

٨٤- ابن عذارى: البيان، جـ٤ ص١٢٤، ويجدر أن نذكر أن ابن عذارى قدم لنا تاريخين مضطربين فى تحديده لاستيلاء المرابطين على مدينة فاس.

٨٥- مارمول كرفخال: أفريقيا، ترجمة عن الفرنسية، محمد صبحى، ومحمد زنيبر وآخرون، الرباط، مكتبة المعارف، ١٩٨٤، جـ١ ص٣٠٤ - ٣٠٥.

٨٦- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٢٠٥.

٨٧- عبد الواحد المراكشى: المعجب، ص٤٤٤، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، ص٤٣١، روجيه لوطورنو: فاس فى عصر بنى مرين، ترجمة د/ نقولا زياده، بيروت، مؤسسة مرتكلين، ١٩٦٧ ص٢٣، عبد القادر زمامة: معالم وإعلام من فاس القديم، مجلة البحث العلمى، عدد ١٦، سنة ١٩٧٠، ص٨٧. واتخذ المرابطون ثم الموحدون من بعدهم مراكش عاصمة لهم وذلك لقربها من جبال المصامدة، وصحراء لمتونة.

٨٨- روجيه لوطورنو: فاس قبل الحماية، جـ١، جـ١ ص٨٢ - ٨٣.

٨٩- ليفى بروفنسال: أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥١، ص١٠٦.

٩٠- مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٥٤، ابن أبى زرع المصدر السابق، ص١٤١، الجزنائى: جنى زهرة الأس، ص٤١، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦، ص١٨٥.

٩١- لوطورنو: فاس قبل الحماية، جـ١ ص٨٣.

٩٢- ابن عذارى: البيان، جـ٤ ص١٢٤.

٩٣- مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٥٤، الجزنائى: المصدر السابق، ٤٢، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦، ص١٨٥، ابن القاضى المكناسى: جذوة الاقتباس، جـ١ ص٥٠.

٩٤- مجهول: رسالة فى ذكر من أس فاس، ورقة ٥٥، الجزنائى: المصدر السابق، ص٤١ - ٤٢.

٩٥- ملوية: مدينة تقع بالمغرب الأوسط على نهر ملوية المشهور. انظر مجهول: الاستبصار، ص١٩٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٩٦- انظر مثال ذلك ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص١٤٤، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٨٥، لوطورنو: فاس قبل الحماية، جـ ص٨٤،
L. Goluin: Le Magrib central, p. 125.

٩٧- هوبكنز: النظم الإسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى، نقله عن الإنجليزية د/ أمين توفيق، تونس، الدار العربية للكتاب، بدون تاريخ، ص٣٩.

٩٨- لوطورنو: المرجع السابق، جـ١ ص٨٤، عبد القادر زمامة: المرجع السابق، ص٨٨.

٩٩- العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، الجزء الخاص بوصف المغرب أيام السلطان أبى الحسن المرينى، ص١٣٨ - ١٣٩، ليون الأفريقى: وصف أفريقيا، ص٢٥٢، لوطورنو: المرجع السابق جـ١ ص٨٥.

١٠٠- ليون الأفريقى: المصدر السابق، ص٢٥٢.

١٠١- عبد القادر زمامه: المرجع السابق، ص٨٨، ويعرف هذا الضرب الآن باسم درب البرج.

١٠٢- مجهول: رسالة فى ذكر من أسس فاس، ورقة ٥٥، ابن أبى زرع الأنيس المطرب: ص١٤١، الجزنائى: المصدر السابق، ص٤٢، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص١٨٥.

١٠٣- كانت التعاليم الدينية التى تلقاها عبد الله بن ياسين من أستاذه وجاج بن زللو المتأثر بتعاليم الفقيه أبا عمران الفاسى المالكى المذهب أثرها فى أن يكون المذهب الفقهى المرابطى مذهبًا مالكيًا. انظر القاضى عياض: ترتيب المدارك، المجلد الثانى، جـ٤ ص٧٨١، ابن عذارى: المصدر السابق جـ٤ ص٧ - ٩، مجهول: الحلل الموشية، ص٢٠.

وكان الغالب على أهل المغرب فى العهد الأول للإسلام مذهب الكوفيين إلى أن دخل على بن زياد التونسى وابن أشرش والبهلول بن راشد، وأسد بن الفرات وغيرهم من الحفاظ بمذهب الإمام مالك إلى المغرب، فأخذه كثير من الناس فظهر وانتشر إلى أن جاء سحنون فأستقر المذهب بصفة رسمية، وتأثر أهل فاس بالمذهب المالكى أكثر من غيرهم فى بلاد المغرب نتيجة تعاليم العالم دراس بن إسماعيل الفاسى المتوفى عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٧ - ٩٦٨م، والذى كان له الدور الكبير فى إدخال مذهب الإمام مالك لمدينة فاس وأخذ الناس عنه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انظر الجزنائي: جنى زهرة الاس، ص ٢٠ – ٢١، ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٧٥ – ٣٧٦، ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، جـ١، ص ١٩٤ – ١٩٥.

١٠٤– ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص١٤١.

١٠٥– ابن ابي زرع: المصدر السابق، ص ١٤٢، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٦ ص ١٨٥، حسن علي حسن: الحضارة الاسلامية، ص ١٢٥.

١٠٦– حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٣٥٧، حسن علي حسن: المرجع السابق، ص١٣٦.

١٠٧– حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ٣٥٤.

١٠٨– ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٤٤، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٦ ص ١٨٦.

١٠٩– المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د/ إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، جـ٤ ص ٢٢٠.

١١٠– المعتمد بن عباد: أحد ملوك دول الطوائف بالأندلس، كان أميرًا على أشبيليه وقرطبة، كان قد استعان بالمرابطين لنصرة الإسلام في الأندلس، لكن فيما بين عامي ٤٨٦ – ٤٨٨هـ/ ١٠٩٤ – ١٠٩٦م اعتقله المرابطون بسجن مدينة أغمات بالمغرب، وتوفي المعتمد بن عباد بالسجن، ودفن بالمدينة ومازال قبره معروفا هناك. انظر نفح الطيب، جـ٤ ص ٢١٣ – ٢٢٤ ابن أبي زرع: الانيس المطرب، ص ١٦٩.

١١١– المقرى: المصدر السابق، جـ٤ ص ٢٢١، وقد ظل المعتمد بن عباد في سجنه بمدينة أغمات، وعندما دخل عليه سجناء فاس مودعين إياه قال المعتمد:

أما لاسكاب الدمع في الخد راحة ... لقد آن أن يفنى ويغنى به الخد

هبوا دعوة يا آل فاس لميتلى ... بما منه قد عفاكم الصمد الفرد

فخلصتم من سجن أغمات والتوت ... على قيود لم يحن فكها بعد

١١٢– مجهول: نبذ تاريخية في مفاخر البربر، ص ٥٨، ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، جـ٤ ص ٢٤٨، ابن ابي زرع: المصدر السابق ص ١٥٨، الذهبي: سير إعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارنؤوط، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤، جـ٢٠ ص ١٢٤ – ١٢٥.

١١٣– ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٥٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١٤- يوسف أشباح: تاريخ المغرب فى عصر المرابطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٤٠، ص ١٢١.

١١٥- حمدى عبد المنعم: تاريخ المغرب والأندلس فى عهد على بن يوسف، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦، ص ١٣٦.

١١٦- لسان الدين بن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثالث، ص ٢٥٣، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٣٥٤،، ص ٢٥٣، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٣٥٤، حمدى عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٢٨ - ١٣٠.

١١٧- حمدى عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٢٩.

١١٨- ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص ١٥٨ - ١٥٩، لسان الدين ابن الخطيب: المصدر السابق، ص ٢٥٣، السلاوى: ص ٢٥٣، السلاوى: الاستقصا، جـ١ ص ١٢٣ - ١٢٤، يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص ١٢١، حمدى عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٣٠ - ١٣١.

١١٩- وادى ملوية: وهو وادى نهر ملوية الكبير الذى ينبع من ملتقى جبال الأطلس المتوسط والأطلس الكبير، ثم تخرج مياهه فى اتجاه شمال شرق حتى يصب فى البحر المتوسط، طوله مائة وعشرون فرسخا. انظر الزهرى: كتاب الجغرافيا، ص ١٤٠.

١٢٠- ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص ١٥٨ - ١٥٩، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص ١٢٤، حمدى عبد المنعم: المرجع السابق، ص ١٣٠ - ١٣١. وتذكر المصادر رواية أخرى لإحداث هذه الثورة، فتروى أنه عندما علم يحيى بن أبى بكر أمير فاس بخروج عمه إليه من مراكش قبل أن يتخذ أهبته فت ذلك فى عضده، فخاف على نفسه، وعلم أنه لا طاقة له بحرب عمه، وأثر أن يولى الأدبار، فخرج من فاس خائفا يترقب مسلما المدينة لعمه فدخلها أمير المسلمين على بن يوسف يوم الأربعاء الثامن من ربيع الأخرى عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، وعلى هذا النحو تمكن على بن يوسف من دخول فاس، حيث استقام له ملكها. انظر ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص ١٥٨، لسان الدين بن الخطيب: إعمال الإعلام، القسم الثالث، ص٢٥٣، السلاوى: الاستقصا، جـ١ ص ١٢٣.

١٢١- ميورقه: جزيرة فى بحر الزقاق بير العدوة المغربية تقع جنوبها مدينة بجاية، ومن الجوف برشلونه بينهما مجرى واحد ومن الشرق إحدى جزيرتها منرقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينهما أربعون ميلا، كما تقع فى شرق ميورقه جزيرة سرادنية وفى غربها جزيرة يابسه، وقد فتح المسلمون هذه الجزيرة عام ٢٩٢هـ ٩٠٤م ولكن تقلبت عليها قوات برشلونه عام ٥٠٨هـ/ ١١٤م لأول مرة، ثم استولى المرابطون على هذه الجزيرة ووليها محمد بن غانية المسوفى وهو أول ولاة بنى غانيه الذين تعاقبوا على ولايتها إلى أن كان آخرهم عبد الله ابن إسحاق الذى رفض فى البداية بيعة الخليفة يعقوب المنصور الموحدى، مما دعى الأخير إلى التوجه إليه بقواته لاسترداد المدينة وغيرها من المدن التى استولى عليها عبد الله بن إسحاق. انظر: الحميرى: الروض المعطار، ص ٥٦٧ – ٥٦٨.

١٢٢– ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص ١٥٩، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص ١٢٤.

١٢٣– حمدى عبد المنعم: تاريخ المغرب والأندلس فى عهد على بن يوسف، ص ١٣٣.

١٢٤– ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٤ ص٤٩. ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص ١٥٩، السلاوى: المرجع السابق، جـ١ ص ١٢٤.

١٢٥– ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٤ ص ٦٢، محمود على مكى، وثائق تاريخية عن عصر المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد السابع والثامن، ١٩٥٩ – ١٩٦٠، ص ١٥٤، وإشبيليه مدينة جليلة بالأندلس، بينها وبين مدينة قرطبة قرابة الثمانون ميلا، تقع على الوادى الكبير، وهى عروس مدينة الأندلس كبيرة عامرة لها أسوار حصينة، وأسواق عامرة، بنى سورها وجامعها الإمام عبد الرحمن بن الحكم انظر الزهرى: كتاب الجغرافيا، ص ٨٨ – ٨٩، الحميرى: الروض المعطار ص ٥٨ – ٥٩.

١٢٦– ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٤ ص ٦٥.

١٢٧– ابن القطان: جزء من كتاب الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق د/ محمود على مكى، الرباط منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، تطوان، المطبعة المهدية، بدون تاريخ، ص ١٢٢، ١٨٣، ابن عذارى: المصدر السابق، جـ٤ ص ٨٣.

١٢٨– ابن القطان: المصدر السابق، ص١٨٣.